جلال الناصري
خرس
رواية

ضرس

بقلم

جلال الناصري

ضـــــرس

٢٠١٧

بقلم: جلال الناصري

رواية مغربية اجتماعية

تصميم الغلاف:
سارة عادل

والتدقيق والتنسيق والإخراج الداخلي:
مروة صلاح الدين (Monny)

حقوق النشر والتوزيع محفوظة للمؤلف
ولحكاوينا للنشر والتوزيع الإلكتروني
ولا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو جزء منه،
أو الاقتباس إلا بموافقة خطية، ومن يخالف ذلك
يعرض نفسه للمسائلة القانونية
www.7akawyna.com

تنويه

ضرس ليست رواية في أدب السجون وإن تدفقت صور أحداثها داخل أجوازه .. وليستْ روايةً سياسيّةً وإن لم تخلُ من بعض ذلك .. وليست رواية ساخرة وإن كان لا فكاك من السخرية على الواقع المُعاش ..

هي ببساطة مزيج من كل ذلك في قالب إجتماعيّ ..

و إن شئت فقل هي مجموعة أفكار لم تعرف طريقها للخروج إلا بهذه الطريقة .. غاصت في دنيا النّاس فكشّفت عن بعض أطماع النفس البشرية وهي وإن كانت من وحي الخيال إلا أنها الواقع ..

القصة ورغم أن أحداثها تدور في بلد يُدعى الجزائر .. إلا أنك ستلاحظ أني قد أسقطت من القصة عاملي الزمان والمكان لحاجة في نفسي .. فيها من الرمزية ما يستطيع القارئ الذكي فك شيفرتها ..

كتبتها بأسلوب سهل سلس بسيط لا تكلف فيه ولا تقعر ولا تشدق ولا ادّعاء ..

فهل نجحت في إيصال رسالتي ؟

لست أدري ...

الإهداء

إلى بابا نويل

رغم أن الآلام لا تُهدى إلا أنّي لم أجد شخصا آخر يستحقها أكثر منك

ورغم أنهم زعموا أنك تُهدِي ولا تُهدَى إلا أنّي قرّرت أن أهديكها

نعم.. رغم هذا وذاك قررت اليوم أن أكون أول من يهديك شيئا

عساك تفهم أننا بحاجة إلى العدل أكثر من حاجتنا إلى الألعاب ..

فخذ هديتي هذه واجمع ألعابك وأيائلك كلها .. وانصرف

فقد مات عمر

الثلوج تتساقط بكثافة لم تعهدها المدينة قبلا .. فارَ الأبيض على الأبيض حتى بدت الأرض غير الأرض .. كل شيء يكتسي حلّته الجديدة بشعور طافح بالفرح يربو على فرح الطفل بكسوة العيد .. هل يحاول الثلج ستر صورة التشوهات التي أحدثناها لأمّنا الأرض .. وتنقيتها من خطايانا وتلوثاتنا الأخلاقية كما يستر الثوب الأبيض الأنيق عيوب لابسه ؟

هذا الثلج لا بد ذائب .. يوم تنقشع غيوم الشكّ مفسحة المجال لشمس الحقيقة لتخرج من مخبئها .. تتنفسه الأرض .. تمتلئ تربتها بمائه لتنبت لنا خَضِرا .. ثم تنفث ما تنفّسته من خلاله .

هذا الثلج الذي اجتمعت فيه المتناقضات وائتلفت فيه المختلفات .. فهو النقي الأبيض .. القاسي البارد .. في ظاهره الرحمة ومن قِبله العذاب .

مسكين من قال : ما أجمل الثلج عندما تراه من نافذة غرفتك الدافئة... وما أبشعه عندما يحاصر خيمتك البائسة هو حتما لم يجرّب بشاعة أن ترى المدينة وأشجارها وشوارعها وأسطح منازلها مغطاة بالبياض من خلال شبّاك شيء يدعى حبس .. حتى وإن كان هذا الحبس متحركا .. سيتمنى يومها لو كان حُرا حتى ولو كان الثلج كساءه وغطاءه .. يتمنى لو يرجع به الزمن ليتمرغ فيه كما يتمرغ المولود في القطن المندوف .

كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساء عندما وصلت حافلة السجن محملة بالسجناء الذين نقلتهم صباحا ليُحاكموا ... عادوا كلهم ولم يفرج عن أي منهم ... عادوا كلهم يحملون آهات تترجم دواخلهم وحنينهم للحرية ... عادوا هذه المرة ومعهم نزيل جديد ... أبت الظروف إلا أن تضمه إليهم في هذا السجن الضخم الذي كان يسمع عنه الكثير وعن ظروف النزلاء فيه

.. لكن لم يره إلا هذه المرة .. نزل الجميع بمن فيهم ماجد وقد كانوا مطأطئي الرؤوس محنيي الهامات .. سار مع السجناء السائرين في ردهة السجن نحو زنزاناتهم وكأنه لا يعنيه أن يرى عالمه الجديد .. أيّ عالم هذا ؟ أبواب ضخمة صدئة .. جدران عالية مهترئة .. زنازين معتمة نتنة .. إنه عالم جديد من الرطوبة والعفن .. ربما هو لم يُبد اهتماما لذلك لأنه يعلم أن لديه من الوقت ما يكفي لحفظ تقاسيم السجن ويخبره عن قرب.

ألقى بجسده النحيف على مكان نومه الذي أوجده لنفسه في الزنزانة بعد يوم مرعب وشاق لم يعايش مثله ولا في الأحلام .. فمن المحاكمة وإجراءاتها إلى الإعتقال وبروتوكولاته فنقله إلى هذا المكان وكل ما رافق ذلك من إجراءات دورية وروتينية ومن ثم تسجيله كسجين رسمي في هذا السجن وإعطائه بدلة تحمل رقما .. وانتهاء بإدخاله زنزانته هذه التي يتشاركها وتسعة عشر نزيلا آخر .. صار رقما ككل الأرقام التي يمكن عدّها بعد أن كان إنسانا فيما مضى .. صار شيئا كباقي الأشياء التي يمكن أن تُرمى وتُحبس بعد أن كان آدميا قبل قليل .

جسده متعب منهك .. مع ذلك يعصاه النوم ويجافيه .. لم يغفو ولو لحظة .. ما أطول الليلة الأولى وما أصعب البدايات .. السكون الذي خيّم على المكان مزّقه ماجد بتأوهه وهو يتقلب في فراشه يمنة ويسرة ... كان يتلفظ بكلمات مبهمة غير مفهومة تخرج على شكل همهمات متوجعة .. لكن ما لبث محسن وهو نزيل كان يرقد أمامه من إدراك كلمة وقعت على مسامعه فانتفض من فراشه وهمس لماجد بهدوء كأنه لا يريد أن يزعج الآخرين وبحنو ظاهر كأنها الشفقة:

- أتشكو من شيء ؟

لم يحفل ماجد بإهتمامه كثيرا واستمر في همهماته وهذيانه ثم صمت فجأة وفتح عينيه على اتساعهما كأنه تذكّر شيئا .. ثم لفظ أخيرا كلمة مفهومة (الضرس)

والتي ما إن نطقها حتى أتبعها بضحكات غير مفهومة تخللتها ارتجاجات تحولت بعد ثوان قليلة إلى شهقات بكاء مريبة

- حسنا .. سأطلب الحارس لينقلك إلى عيادة السجن أردف محسن

قاطعه ماجد ملوحا بيده:

- لا.. لا

ثم أتبعها بتأوهات أخرى وضحكات

جلس محسن يرقبه يكاد لا يفهم شيئا مما يحدث أمامه ثم همس:

- أعرف أنها ليلتك الأولى التي تكون فيها محبوسا بعد أن كنت حرا طليقا لكني أبشرك أنك ستتعود يا صديقي..

عاد إلى فراشه وهو يردد:

- نعم ستتعود كما تعودنا.. فقط حاول أن تنام، أغمض عينيك وفكر في كل ما يسرّك فقد قرُب الفجر على الطلوع.

انتفض ماجد على وقع ضربات على قضبان بوابة الزنزانة وصوت كأنه صوت زبانية الحشر .. أدار رأسه بمنة فوجد محسن ينظر إليه مبتسما ..

- إنه الحارس وهذا وقت خروجنا للإفطار ومن ثم إلى الساحة .. أردف والإبتسامة لم تغادر وجهه:

- لا تقلق ستألف حياة السجن قريبا.

جلس ماجد مختليا بنفسه منزويا في إحدى زوايا باحة السجن... لكن خلوته لم تدم طويلا حتى قطعها عليه محسن .. جلس إليه وقال بنبرات ضاحكة وقسمات باسمة كمن يريد فتح حديث:

- الجو رائع اليوم يا صديقي

- نعم يبدو كذلك .. قالها ماجد دون أن يكلف نفسه عناء رفع عينه عن الأرض

- استمتع يا أخي بكل لحظة تعيشها حتى وإن كنت في مكان كهذا ولن تمل أعدك بذلك.. أضاف محسن

نظر اليه ماجد مليا ثم قال: كم مرّ عليك وأنت هنا؟

أجاب محسن ضاحكا: سنتين وشهر وأربعة أيام وتسع ساعات إلا بضع دقائق

صاح ماجد مستغربا: أتحسب كم قضيت بكل هذه الدقة؟

علت ضحكات محسن المكان وأردف: طبعا بل وبالثواني وأجزائها.. ثم أطرق قليلا وقال: عشر سنوات سأقضيها هنا من أجل.. ثم سكت.. ترك جملته مفتوحة.

- أكمل من أجل ماذا؟ سأل ماجد بحماس.

- لا أدري حقا ما هي تهمتي.. لكنّهم يقولون أنني عنصر خطير أثير البلبلة في المجتمع وأشيع الفتن

- كيف ذلك ؟ لم أفهم ما تعنيه

- كنت إماما خطيبا .. أجاب محسن

بينما صاح ماجد في استغراب: إمام في السجن؟ ما الجريمة التي اقترفتها؟

رد محسن في استنكار: جريمة؟ أنا لم أرتكب أي جرم.

- ولم أنت هنا إذا؟

قال ضاحكا: لأني رفضت أن أكون من أئمة الجور والسلطان الذين لا يعرفون غير هزّ الأذناب والرؤوس تهليلا بإسم الظالمين والدعاء لهم بطول العمر .. ألححت على الرعية لتنتفض بمحاسبة راعيها .. دعوت الله من على المنبر أن يصلح البلاد ويهلك الطغاة والظالمين .. ولأنهم يعلمون أنهم كتلة من فساد فهموا أنهم المقصودون .. فأصدروا مذكرة اعتقال في حقي.

- أمن أجل هذا؟

- نعم.. ثم أضاف مازحا أما علمت أنهم يحبسون حتى من نسي أن يدعوا بالخير لسيادتهم الموقّرة في سجوده.

- يا للعار.. أمثالك من المفترض ألا يُسجنوا فأنتم نواة الأمة.. فهذا المكان للمجرمين

- وهل أنت مجرم؟ عاجله محسن بسؤاله

- طبعا لا.. أجاب ماجد

- لم أنت هنا إذا؟

تنهد ماجد ونحنح حتى تردّد صوته في صدره ثم قال: اعذرني الآن لا أستطيع.. ربما سأروي لك قصتي في يوم ما.

- حسنا كما تريد.. لكن فلتعلم أن هذا المكان لا يضم بين حوائطه المجرمين فقط.. هنا الكثير من المظلومين والمقهورين ومسجوني الرأي والكلمة.. الكثير من المعتقلين السياسين والمدونين والصحفيين والكُتّاب.. إنهم يحاربون كل جميل مستظرف ويدعمون كل قبيح مستهجن.. يستقوون

على خيرة أبنائهم بدل أن يستقووا بهم.. يسجنونهم بدل أن يُصلحوا فسادهم.. ربما لأن سجنهم أقلّ تكلفة من الإصلاح الذي نادى به هؤلاء.. يردف هازئا: هذا هو التوفير الإقتصادي الذي تبنته الحكومة الرشيدة.

وهنا قطع حديثهم جرس السجن إيذانا منهم بدخول وقت عودتهم إلى زنازينهم، قاما وقد أحاط كل واحد ذراعه على كتف صاحبه.. توطدت علاقتهما من أول لقاء.

علاقة ربما لا تزعزعها مستقبلا سياط السجانين ولا حوائط السجون .. فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف .

مضى شهر على سجن ماجد .. ازداد ارتباطه وحبه لمحسن كأخ وخل ناصح وفيّ

استمر يفزع من نومه كما الليلة الأولى وارتبطت كلمة الضرس على لسانه فلم تفارقه ولا ليلة .. بقي على حاله يفتح كل المواضيع إلا موضوعه ويسرد كل القصص إلا قصته وحكاية سجنه .. كان محسن رجلا متفهما لا يحب أن يرهقه أو يزيد عليه رغم كثرة التساؤلات التي دارت في دماغه حول غموض شخصية ماجد وما يعنيه من خلال كلمة الضرس التي يلفظها في الليل وهو في حال بين الصحو والمنام .. لم يحاول استكشاف غوامضها والغوص فيها .. فلا مجال لفتح ما استغلقه ماجد على نفسه وأودعه سريرته .. ما لم يفصح هو نفسه عن نفسه.

وجاء ذلك اليوم الذي طالما انتظره محسن وتشوّق له .. وفتح ماجد قلبه له فقال:

- اسمع مني يا صديقي حديثا عجيبا فإني لم أُكتمك قصتي لأني لا أريد أن أحدثك.. حاشا وكلا فأنت مني بمنزلة الأخ الشقيق بل أقرب .. لكني

انتظرت حتى أجمع نفسي فلا تضيق بعد توسعة وحتى أطرد عن نفسي كل شعور يخالجني ويخالطني كما يخالط الشحم اللحم فقد اجتمعت من نفسي كل المتناقضات من ندم وملامة وحسرة وحقد وغل .. ملامة وحسرة على نفسي وبغض وحقد لكل من هو خارج هذه الأسوار.

- ألهذه الدرجة ؟ صاح محسن في استغراب ثم استدرك.. فإني مصغ إلى حديثك

تنهدّ ماجد في حسرة ظاهرة وقال:

- هل تصدق أن سبب تواجدي هنا هو الضرس.. لا تستغرب.. نعم فضرسي من أوصلني إلى ما ترى من حالي.

ففي يوم من أيام حياتي العادية الرتيبة أحسست بوجع خفيف في ضرسي

ومع أنه توقف بعد لحظات قليلة إلا اني حدّثت نفسي أن أزور طبيب أسنان فأتفادى آلامه في الليل إن حدثت وأنت تعرف جيدا آلام الأسنان إن داهمت صاحبها ليلا فلا تبقي له نوما ولا نعاسا حتى أن المرء ليحدث نفسه بدفع كل ما بين يديه من أجل زوال آلامه وهذا هو الانسان بطبعه لا يحس بشيء إلا إذا فقده فالمرءُ لا يحس بنعمة النوم إلا إذا أرِق ولا بنعمة الصحة إلا إذا تألّم.. ولأتجنب الألم والأرق المتوقع زيارتهما ليلا دخلت لأول عيادة أسنان صادفتها في طريقي ولجت إلى العيادة ولحسن حظي لم أجد طابورا كما المعتاد دائما في العيادات والمستشفيات، دخلت مباشرة إلى الطبيب الذي طلب مني الجلوس على الكرسي المخصص ولأن كلمة كرسي ممنوع تداولها سياسيا ارتبكت قليلا ثم ما لبث ارتباكي أن زال بعد أن تذكرت أن هذا الكرسي بالإضافة إلى كرسي الحلاق هما الكرسيان الوحيدان اللذان يتم التداول عليهما بشكل ديمقراطي وبدون أدنى خوف

ولأن المواطن العربي لا يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان فتحت فمي بكل أريحية استجابة لطلب الطبيب.. شكوته الضرس المتهم والمطلوب فطمأنني بأنه مجرد تسوس بسيط وسيتم ترميمه بكل سهولة.

حمل الثاقب وبدأ الحفر لإزالة التسوس ثم أغلقها بالحشوة الطبية البيضاء كما هو متعارف عليه لدى أهل الإختصاص ..

شكرته وغادرت العيادة بعد أن نقدته أتعابه .. وبعد أن ضرب لي موعدا آخر في الأسبوع الذي يليه لإتمام العلاج .

حين حلّ الظلام زارني ضيف لم أتوقع مجيئه في وقت كهذا .. خاصة بعد أن آليت جهدي في منعه من زيارتي .. إنه ألم الضرس.. ألم في نفس الضرس الذي رممته قبل ساعات تفاديا للمواجهة الصادمة بيني وبين الآلام التي لا يمكن أن أتحملها بأي حال من الأحوال كانت آلاما فظيعة لم أشهد مثلها قبل اليوم بتّ ليلتي أنتظر الصباح على أحرّ من الجمر .. ما أطول تلك الليلة وما أبعد الصباح انتظرته أمام عيادته صباحا حتى جاء وفتح عيادته أعلمته بما جرى معي وكيف قضيت ليلتي ..

جلست فوق الكرسي مرة ثانية، شغّل الضوء.. حرك الكرسي يمينا ثم أسفل قليلا حتى تتبين له الرؤية جيدا .. أتمّ فحصه ثم طمأنني مرة أخرى وأكد أن الضرس الذي أطار النوم من عيني والعقل من رأسي ليس هو نفسه ضرس الأمس بل هو ضرس آخر ملاصق للأول ..

حقنني بإبرة التخدير ليزيل عني الآلام وشغل الجهاز الحافر وبدأ عمله من جديد بعد أن أومأتُ له برأسي أن قم بواجبك وخلصني من الآلام فلم أعد أحتمل المزيد ..

- هل توقفت الآلام عند هذا الحد ؟

- الإجابة لا.. بل زادت في الليلة التي بعدها وكانت الآلام هذه المرة ثقيلة الظل كان ألما رهيبا لم أسطع معه صبرا .. كدت أن صدم رأسي بالحائط من شدة وهول هذا الألم الذي لم أذقه قبلا ..

خرجت بعد منتصف الليل من البيت هائما على وجهي لا أدري وجهتي ولا أقصد مكانا بعينه .. ربما كنت متجها إلى المستشفى لأخذ إبرة مسكنة أو شيء من هذا القبيل ..

وأنا في أسير في طريقي لا أحفل بأحد ولا أهتم بشيء مما حولي إذ بسيارة تركن بقربي نظرت فإذا هو أمين .. صديق قديم .. كان عائدا من جلسة سكر كعادته

ركبت معه في السيارة وأخبرته بما أعانيه بعد أن سألني عما أفعله في هذا الوقت وأنا الذي لم أعتد إلا النوم باكرا .. هو يعرف إلتزامي الشديد وانضباطي في المواقيت والأمور الحياتية ..

حدّثته بخبري فقال : أعرف طبيبا للأسنان سأقصده من أجلك ولن يخيبني فهو صديق لي منذ زمن ..

وصلنا إلى بيت الطبيب محمد هاتفه صديقي ترجاه ووصف له حالتي التي كنت عليها ..

لقد كنت نصف مُبصر نصف عاقل وإن شئت فقل نصف حي

استجاب الطبيب لذلك رغم تأخر الوقت إكراما لصديقي الخلوق ..

خلوق ؟ ألم تقل آنفا أنه سكّير ؟

نعم نعم .. سكّير خلوق .. أوليست الأخلاق شيء والمعاصي شيء آخر تماما..

فقد ترى شخصا متدينا لكنّه مفتقر لمحاسن الأخلاق.. وقد ترى العكس من ذلك فتجد الرجل عربيدا لكنّه متزيّن بحسن أخلاقه وهذا هو الذي يَألف ويُؤلف لا الأول ..

فلأن أصاحب سكيرا حسن الخلق خير من أن أصاحب متدينا سيء الخلق .. هكذا قال الحكماء الذين خبِروا الحياة وسبروا أغوارها ..

إذا .. دخلت عند الطبيب بفضل صديقي الخلوق الذي توسط لي عنده..

قال بعد أن فحصني أنّني قد حُقنت بإبرة غير معقمة وأن من رمّم لي ضرسي هو سبب كل تلك الآلام إذ أن الضرس كان قد تعفن .. فيتوجب فتحه من جديد لازالة الآلام وهو ما تم فعلا ..

كتب لي وصفة أدوية وأكد لي ضرورة إجراء عملية جراحية في القريب العاجل .. فاللثة التهبت في المكان الذي حُقنت فيه والأضراس تعفنت .. وكل هذا سبّبه لي الطبيب الأول الذي عالجت عنده .. الغريب في الأمر أنه حين سألني عن الطبيب الأول الذي عالجني أخبرته ان اسمه سلطان.

ضحك ضحكة لم أفهم كنهها .. ربما هي ضحكة استهزاء ثم قال :

- سلطان .. ألم تعلم أنه ليس طبيبا ..

- ظننت في البداية انه يعني بكلامه أنه ليس مؤهلا أو أن كلامه من قبيل حسد الأقران فأولا وأخيرا هذا خطأ طبي والأخطاء الطبية تحدث دائما في بلادنا حتى اعتدناها وصارت عندنا أمرا مألوفا ومقرونا بالطب .. لكنني فتحت فمي دهشة حين أكد لي أنه ليس طبيبا أصلا ولم يدرس الطب ولا يملك أي مؤهل يؤهله لممارسة مهنة الطب

قلت: أتقصد أنه منتحل صفة

أومأ برأسه أن نعم إنه طبيب مزور يا بُني

قلت: وأين الرقابة والناس ألا يعلمون بأمره بل وأين أنتم منه؟ كيف سمحتم له بسرقة مهنتكم وممارستها أمام أعينكم وأنتم لا تحركون ساكنا ؟

قال بلغة سريعة كلاما كثيرا أحسست من خلاله أن أسئلتي الفضولية قد بلغت منه مبلغا .. فهمت من خلال كلماته الخاطفة أن سلطان ذو نفوذ وأن الرقابة تعلم بأمره لكنها تتكتم عنه لما تتلقاه منه من أموال .. وأما الأطباء فقد اجتمعوا وحرروا عدة شكاوي .. أمضاها كل أطباء الأسنان في هذه المدينة وأودعوا هذه الشكاوي إلى مديرية الصحة لكن لا أحد حرّك أو تحرّك .

عدت إلى البيت معافى .. كأني لم أكن أشكو ألما الآن فقط يمكنني أن أنام مرتاحا من كل الأوجاع التي مررت بها .. هكذا حدّثت نفسي .. لكن ما إن ألقيت برأسي على الوسادة إلا وخطر ببالي ألف سؤال وسؤال حول موضوع هذا الطبيب الذي يكتنفه الغموض .. تساءلت بيني وبين نفسي ..

شخص كهذا ليس له شهادة ولا مؤهل يؤهله لممارسة هذه المهنة أكيد ليس له ترخيص فما الذي حمله على فعل ما فعل وادعائه الطبابة وانتحاله صفة طبيب ؟ أمن أجل المال ؟ أم من أجل الشهرة ؟ أم حبا في السمعة الحسنة ؟ أم من أجل المكانة الإجتماعية ؟ أم من أجل .. أم من أجل .. ؟ قلبتها في فكري ليلة كاملة فوجدت أن سببا واحدا مما خمّنت ..بل حتى لو اجتمعت كل هذه الأسباب وأكثر .. لن تكون مبررا كافيا لفتح عيادة بغير وجه حق و قتل الناس والإستهتار بحياتهم والنصب على أموالهم .. فالطب مهنة إنسانية قبل أي شيء .. أيعقل أن يتزّر بمئزر الإنسانية وهو في قرارة نفسه يعلم أنه جزار وليس بطبيب وخائن لنفسه

ولأمته ولإنسانيته .. فمئزر الطبيب ما كان أبيضا إلا ليدلّل على نقاء صاحبه وطهارته وسمو نفسه عن الدنايا فكيف بربّك يرتديه من نفسه مشوبة منحطة لا ضمير لها ..

بتّ ليلتي أتقلب عن جنبيّ يمنة ويسرة وأنا أفكر وأفكر حتى اهتديت لقرار وهو أني لا بد أن أكلّمه غدا وأحدّثه عما أحدث لي من أضرار مادية ومعنوية جسمية ونفسية وأنظر الجواب منه على تساؤلاتي فليس من رأى كمن سمع .

انطلقت في الصباح وليس يدور في خلدي إلا شيء واحد وهو سر هذا الطبيب هل هو فعلا طبيب أم حقا هو ليس بطبيب ؟ كيف ستكون إجابته ، كيف سيرد على تساؤلاتي ماذا سيقول ؟ جعلت أقلب كل هذه الأسئلة في رأسي وأنا أنظر موضع قدمي تارة وأنظر إلى بطاقة المواعيد التي منحنيها والتي كان مدونا في أعلاها بخط عريض عيادة الحرية وأسفلها الدكتور سلطان أسرعت في مشيتي وأنا أردد بيني وبين نفسي لا بد أن أتحدث معه .. ولكن لا أدري أحديثي معه سيزيل غشاوة حيرتي أم سيزيدني حيرة على حيرة .. وصلت إلى العيادة المنشودة فتحت لي الممرضة أو بالأحرى البوابة الباب .. فقد كانت ترتدي مأزرا أبيضا لكن عملها لم يكن يتمحور في الحقيقة إلا في فتح باب العيادة الخارجي للزبائن حينما يُقرع الجرس .. وهذه نقطة مهمة وغريبة لم أنتبه لها في المرة الأولى كون باب العيادة مغلق عكس العيادات الطبية الأخرى في شتى بقاع الكون التي تكون أبوابها مفتوحة في وجوه المرضى على مصراعيها .. و قد كان الباب بالإضافة إلى كونه مغلقا مثبتا في وسطه في الجهة العلوية كاميرا ترقب وتكشف حال الزائر قبل فتح الباب .

انتابتني منه ريبة هذه المرة التي أصبحت أدقق في أبسط الأمور التي قد تكون أدلة تثبت كلام الطبيب محمد عكس المرات السابقة التي لم أكن أركز في دقائق الأمور إذ ضرب الألم حينها حجابا بيني وبين التمييز .. لكن ريبتي ما لبثت أن انقشعت حين سألت عن الطبيب فقالت تلك الممرضة أنه عليّ الانتظار قليلا لأن الطبيب مشغول بإجراء عملية جراحية لأحد زبائنه المرضى .. جلست أنتظر فراغه وقد انقشعت غشاوة الشك عن عيني إذ كيف يجري عملية جراحية لو لم يكن طبيبا ..

لا بد أن الطبيب محمد حين أخبرني أن سلطان طبيب مزور كان أحد اثنين : إما مُخطئ وإما حاسد ..

وأنا على تلك الحال غارق في تفكيري خرج الطبيب سلطان ووراءه ذاك المريض يضع قطنا طبيا بين شفتيه ويزمّهما بقوة كي يحبس الدم ويمنعه من الإنسياب ربّت سلطان على كتفه برفق وقال : عُد بعد يومين لأنزع لك خيط الجراحة .. أومأ المريض برأسه أن نعم وخرج .. نظر إليّ سلطان وتبسم إذ كان قد تذكرني قال:

- كيف حالك تفضل إلى الداخل ... دخلت وراءه دون أن أنطق بكلمة .. تفضل اصعد على الكرسي حتى نُتِم العلاج

- الحقيقة أني اليوم لم آت لأتعالج

نظر إلي متعجبا وقال : ولم أتيت إذا ؟

- إني لمّا خرجت من عيادتك المرة الفائتة أصابني ألم عجيب وألّم بي وجع غريب .. وإني قد أسعفت عن طبيب آخر وتداويت عنده .. وقصصت عليه ما كان من خبر تلك الليلة اللّيلاء .. حتى قلت: وإن هذا الطبيب قد أخبرني : أني قد حُقنت بإبرة متعفنة وعلي إجراء عملية جراحية ..

قهقه قهقهة غريبة فيها من السخرية والغرور ما فيها وقد تغيرت ملامح وجهه كلية وقال:

- أنا حقنتك بإبرة متعفنة وأكمل قهقهته التي كأنها قهقهة حمار ثم أردف: من هذا العلامة الذي أخبرك بهذا الكلام ومن يعرف خيرا مني في علم طبابة الأسنان بل ومن أعلم مني ..

نظرت إليه شزرا وقد تعجبت غاية العجب وأدركت حينها أني أكلم أخرقا أحمقا ..

سكتّ لحظة ثم قلت وأنا أشير بسبابتي إلى فمي : أهذا ليس خطأ طبيا ؟

ودون أن يكلف نفسه عناء أن ينظرني قال بعنجهية : طبعا لا أنا لا أخطئ..

لم أفُه بعدها بكلمة واحدة .. خرجت من عنده وأنا أتمتم : حسنا إذا لنرى..

توجهت مباشرة إلى الطبيب محمد الذي عالجني أو بالأحرى أنقذ حياتي والذي كان قد حدّثني بقصة هذا المغرور سلطان .. توجهت إليه لأستفسر أكثر ولأكمل علاج الضرس عنده ..

فتح الطبيب محمد درج مكتبه حين قصصت عليه ما جرى لي مع سلطان وأخرج رزمة أوراق جعل يقلبها بين يديه كأنه يبحث عن شيء ما ثم التقط من بينها عدة أوراق وقال: تفضل انظر بنفسك

قلت: ما هذا ؟ قال: هذه شكاوينا التي أرسلناها إلى مديرية الصحة أمسكت الأوراق قلبتها .. فتحت فمي دهشة .. كانت إحدى هذه الأوراق عبارة عن عريضة قانونية أمضاها حوالي عشرون طبيبا من أطباء المدينة وكان مكتوبا في مطلع الورقة الثانية

الموضوع: شكوى إلى مديرية الصحة..

نحن الأطباء الممضون في العريضة نحيطكم علما أن المدعو سلطان صاحب عيادة الحرية لطب الأسنان يمارس المهنة دون أي مؤهل أو شهادة أو ترخيص ولأنه دخيل على مهنتنا ومنتحل لصفتنا نرجوا تدخلكم السريع عسى أن تردعوه وتحقنوا دماء أناس تتداوى عنده .. فأرواحهم بين يديه وهم لا يعلمون من أمره شيئا هذه شكوانا إليكم .. وننتظر إجراءاتكم في أسرع ما يمكن قبل أن يحيق به أويُحيق بأبرياء ما لا يحمد عقباه .

ثم في ورقة أخرى شكوى ثانية..

شكوى إلى مديرية الصحة..

وصلتكم شكوانا قبل ثلاث سنوات بخصوص سلطان وعيادته فلم تحركوا ساكنا وإننا نعلمكم أننا نستقبل يوميا مرضى قد نصب عليهم وأخذ أموالهم وأجرم بحق أفواههم وأسنانهم وأضراسهم ..

فنحن أطباء المدينة نثق فيكم ونناشد تدخلكم في أقرب وقت ممكن فإن لم تقفوا أنتم حاجزا أمام أدعياء الطب فمن؟.

خيم على المكان صمت رهيب قطعه الطبيب محمد حين بادر قائلا:

- لكن أنت يمكنك أن تفعلها

- أنا ؟

- نعم أنت .. ففي الشكاوي السابقة لم نكن نملك دليلا نبني عليه قضيتنا وكل المرضى السابقين الذين أحدث لهم أضرارا جسمية ونفسية لم يجرأ أحد منهم على رفع شكوى ضده ..

- لم يجرؤوا ؟ لماذا ؟

- معظمهم كان يخشى المحاكمات واجراءاتها ممّا يعتبرونه إضاعة وقت وجهد ومصاريف وغيرها

قلت: أوَ إن رفعت عليه دعوى قضائية أأربح القضية وتُغلق له عيادته؟

قال: طبعا فأنت ضحية وسنساعدك بتقارير طبية ولديك بطاقة المواعيد خاصته وهي دليل قوي على انتحاله صفة طبيب ..

ولأني لم أنبس ببنت شفة أردف قائلا : إن أردت فعل ذلك بإرادتك طبعا وإن امتنعت فلا أحد سيلزمك أو يجبرك أو حتى يلومك فالقضية الآن بينك وبين ضميرك ..

تنهدت ثم قلت : لا بأس سأفكر في الأمر ..

ثم دار بيننا حوار روى لي فيه عن بعض الحالات التي استقبلها في عيادته وكان السبب فيما جرى لهم هذا الدّعي سلطان .. وربما أكثر ما حزّ في نفسي قصة فتاة مسكينة سبب لها التهابا في اللثة السفلية الخارجية ما اضطرها لإجراء عملية جراحية لإستئصال الإلتهاب .. لكن بعد العملية حدث لها تشوه مُعيب في الشفة السفلية اضطرها لإجراء عملية ثانية لكن هذه المرة كانت تجميلية لإصلاح ما أفسدته أيادي العبث أيادي سلطان فخسرت خلقتها وجمالها بعد أن خسرت مالها فقط لأنها عالجت عند من ليس بأهل للمعالجة .. والذنب ليس ذنبها طبعا إذ لو علمت بأمره ما كانت لتمنح فمها لهذا الدّعي ليعيث فيه فسادا وتخريبا .. بل الذنب كل الذنب تتحمّله الرقابة الغائبة التي تركت الحبل على الغارب .. حتى دخل في الميدان من يُسيء ولا يُحسن ويخرب ولا يصلح ويمرض ولا يعالج .

بقيت كلمات الطبيب محمد ترنّ في أذني (لم يجرؤوا)

تذكرت خبرا قرأته منذ مدّة مفاده أن امرأة أمريكية رفعت دعوة قضائية ضد شركة "مارلبورو" للسجائر لأنها سببت لها مرض السرطان .. وقد كُيّفت القضية وربحتها وأخذت تعويضا منهم لأنها خُدعت بومضاتهم الإشهارية على حد تعبيرها .. وبما أن هذه من حقوق المستهلك التي يكفلها قانون المستهلك نرى في الدول المتقدمة شخصا يقاضي "المكدونالدز" لأنها سببت له البدانة والسمنة وأخرى تقاضي شركة الاتصالات لأن الخدمة سيئة بالنسبة لها .. وفتاة تقاضي شركة الشامبو لأن شعرها لم يُصبح كشعر شارابوفا كما زعموا في إشهارهم وآخر يرفع دعوى على شركة الأشغال العمومية لأنهم تركوا مطبّة صغيرة تسببت في إتلاف عجلته و و و ..

كثيرة هي هذه الأخبار التي تتناقلها وسائل الإعلام عن العالم المتقدم الذي يعرف حقوقه جيدا .. وعلى النقيض من ذلك تذكّرت جاري الذي أجرى عملية جراحية على الزائدة الدودية .. فسُرقت كليته .. رغم أنه اكتشف الأمر لاحقا إلا أنه لم يحرّك ساكنا أتُراه لم يجرأ أيضا على حد تعبير الطبيب محمد أم أنه لا يعرف حقّه .. أم أن في الأمر سرا ما ؟

بعد شهرين من إجراء العملية الجراحية والخضوع للعلاج المستمر تخلصت من الورم الذي سببته لي الإبرة المتعفنة كما ثبت بعد ذلك في الفحوصات الطبية .. وخسرت ثلاثة أضراس هي كل ما أملك في الفك العلوي الأيسر .

حمدت الله أن الأمور توقفت عند هذا الحد فقد كان بالإمكان أن تسوء حالتي أكثر ويحدث ما لا يُحمد عقباه كأن ينتقل إليّ عبر الابرة المتعفنة فيروس ما أو مرض ما من الأمراض التي تنتقل بالعدوى وتنتشر عن طريق هذه الوسائل الغير معقمة . . لأننا لم نكن نعلم كيف حدث لي هذا ؟ أكان

الدواء المخدر منتهي الصلاحية؟ أم أنه استعمل تلك الابرة لمريض قبلي ثم أعاد استعمالها مرة اخرى وحقنني بها ؟ إن كانت الأولى فمصيبة وإن كانت الثانية فالمصيبة أعظم لكن كلتا المصيبتين تهون عند المصيبة الأكبر والأعظم .. الأدهى والأمر .. مصيبة أنه ليس بطبيب أصلا وليس له حق حقني ومعالجة ضرسي بل لا حق له في لمس فمي أصلا .

بعد دورة العلاج هذه اجتمعت لديّ بالإضافة إلى بطاقة مواعيده العلاجية والتي تعتبر دليلا قويا لإدانته الكثير من الوصفات و الفحوصات والأشعة والتقارير الطبية .. فقد كتب لي الطبيب محمد تقريرا مفصلا تصف حالتي وصفا دقيقا من يوم طرقت عليه الباب ليلا أنا إلى غاية اليوم الأخير من العلاج .

استشرت الأهل وبعض الأصدقاء حول موضوع الطبيب المزور أأقدم شكوى رسمية ضده أم لا فما حصل لا يمكن غضّ الطرف عنه .. فبالإضافة إلى كونه خطأ طبيا من حق المتضرر اللجوء إلى المحكمة فهو طبيب مزور مزيف ولا أريد السكوت على باطل .

الكل كانوا على رأي واحد وهو أن أحمد الله على السلامة وأن أنسى أمره سترهقك تكاليف المحامين وتبعات المحكمة .. قال أحدهم بيتك من زجاج فلا ترمه بالحجر .. أنت فقير مسكين لا جاه لك ولا سلطان وهو غني ذو نفوذ ومعارف .. لن تستطيع مواجهته .. أضاف آخر الحقيقة أني فكرت في كل هذا قبلهم لكني لم أجد لي عذرا قويا يجعلني أتخلى عن مبادئي التي طالما تغنيت بها وأن أسكت على باطل أستطيع إنكاره بالحجة والمغالبة .

تساءلت بيني وبين نفسي ماذا لو قدّر الله ونقل لي مرضا من الأمراض المعدية أو تسبب في تشوه وجهي أو شللي .. هل كنت سأسكت؟

الأمر لا يختلف كثيرا فما تزال بين يديه الكثير من الأرواح .. ويمكنه أن يتسبب لهم في ما تسبب لي أو أكثر ..

ماذا لو قتل إنسانا فوق كرسيه فحتما أنا شريك له في الجريمة لأني لم أقف في وجه الباطل حينما كانت الفرصة سانحة لي ولم أنكر المنكر .

حزمت أمري .. لن أسكت على الباطل .. فلا عزاء لمن سكت عن حقّه .

سأغير المنكر ما استطعت بلساني وبقلبي وحتى بيدي ان اضطررت سألجأ إلى المحكمة .. سأقدم شكوى صحيح أنني ضعيف لكن موقفي قوي وحجتي قوية .. وهذا يكفيني أردت أن أدعم ملفي بتقرير طبي من الطبيب الشرعي فتقريره له وزنه في المحكمة خاصة أن جرح العملية في اللثة لم يندمل بعد ولا يزال يحتاج إلى وقت طويل كي يزول أثره تماما توجهت إلى المستشفى .. راجعت برناج الأطباء .. سألت عن الطبيب الشرعي .. علمت أنه يعمل يومين في الأسبوع فقط في هذا المستشفى .. الأحد والأربعاء .. وبما أن اليوم الثلاثاء فلن يدوم انتظاري طويلا .. غدا سيحضر .. وإن غدا لناظره لقريب .

الأربعاء استيقظت أبكر من أيّ يوم فبالإضافة إلى أني أريد بتبكيري أن أتحاشى الاكتظاظ وطوابير المُراجعين في المستشفى كنت أتعاجل تقديم شكواي قبل أن تفتر عزيمتي وتخور همتي بتثبيط مثبط خاصة أن الأهل كانوا ضد قرار اللجوء إلى العدالة وكثيرا ما ردّدوا على مسامعي عبارات كـ (ستورط نفسك في المشاكل وتورطنا معك) .. (ما دخلك أنت طبيب أم لا .. هل تريد أن تعمل عمل الرقابة .. ماذا تعتقد نفسك) .. (تظن نفسك سوبرمان مثلا تريد أن تخلّص العالم من الشرور) (لقد شفيت احمد الله على السلامة .. دعك منه وفوّض أمرك إلى الله)

لم ألتفت إلى كل هذه العبارات ومضيت قُدما صوب ما عزمت عليه ولم أستمع إلا لصوت ضميري الذي يقول : هي مسؤوليتك أمام الله وأمام وطنك وشعبك .. فتوكل على الله وأدّ ما عليك.

دخلت المستشفى اتبعت إشارات اللّوحات الدالة على الإتجاهات .. صعدت السلالم.. مشيت في الرواق الذي تتواجد به عيادة الطبيب الشرعي..

سألت ممرضة كانت تقف أمام باب العيادة تحمل سجلا وقلما ..

- الطبيب موجود؟

- لم يصل بعد؟ خير ان شاء الله ألك حاجة؟

- نعم .. سأجري معاينة وتقييما لبعض الأضرار

حدّقت بي طويلا وهي ساكتة .. تفرّستني ببصرها من وجهي نزولا إلى أطرافي عرفت أنها كانت تتأملني أو قل تعايننني وتتساءل في نفسها بدهشة لم تفصح عنها:

- وأين هي هذه الأضرار؟.

فغالبية من يزور الطبيب الشرعي من أجل التقرير الشرعي تكون كدمات واضحة على مُحياه بإنتفاخات أو نتوءات في الوجه أو بخدوش وكسور في الأضلاع والأطراف .

وأنا كنت أقف أمامها بوجهي الأسمر وجسدي النحيل خال من أيّ منها والحمد لله.. قطعتُ صمتها ودهشتها وشتّتُ استفساراتها بقولي :

- أريده أن يقيم ضررا ألحقه بي طبيب أسنان في فمي .. ولم أدر لم ولا كيف فتحت فمي وبدأت أريها موضع الجرح في اللثة ومكان الأضراس المخلوعة من الفك العلوي من فمي .

ولأنني ثرثار مهذار بدأت بسرد تفاصيل قصتي مع الطبيب المزور .. أحسست أنني أخطأت في بوحي لها .. فبالإضافة إلى أنه لا فائدة من كل هذا الكلام معها .. فقد عرفت من ردة فعلها أنها تعرفه تمام المعرفة . . فبدت أنها تدافع عنه محاولة ثنيي عن الشكاية به.

قطع محاولاتها البائسة تلك وصول الطبيب الذي مرّ من أمامنا ودخل مكتب عيادته كان هو .. الطبيب الشرعي الذي انتظرته .. طلبت مني الممرضة أن أنزل إلى مكتب الاستقبال لأدفع ثمن وصل المراجعة .. وهو ما قمت به فورا .. وعند عودتي طرقت باب العيادة طرقات خفيفة سمعت من خلفه صوتا حادا ..

- تفضل..

فتحت الباب ودخلت .. الطبيب جالس إلى مكتبه ينظر إليّ نظرات لم أفهم كنهها ..

الممرضة واقفة إلى يساره تتأمل السجل الذي بين يديها وقبل أن يطلب مني الجلوس .. عاجلني بقوله:

- ماذا تريد؟

أصابتني الدهشة من سؤاله المفاجئ والغير متوقع .. إذ كيف يسأل سؤالا هو يعلم إجابته من الأول .. وماذا يريد المريض من الطبيب غير الكشف والعلاج .

- أريد حلاقة شعري .. قلتها متهكما ممتعضا

صاح : لست في مزاج يسمح بالمزاح يا هذا

- حسنا إذن .. أريد تقريرا عن الضرر الذي سببه لي طبيب أسنان

- أنا لا أقدم تقارير عن أطباء آخرين

- طيب .. ماذا لو أخبرتك أنه ليس طبيبا أصلا فهو مدّع مزيف

- ليس شغلي هو شغل المحكمة

كل هذا وأنا لا أزال واقفا وهو لا يزال جالسا على كرسيه المتحرك يمنة ويسرة ..

عرفت أن الممرضة الواقفة إلى جانبه قد حكت له أثناء نزولي وانشغالي بشراء الوصل وربما هي التي أثّرت حتى على قراره و طريقته في مخاطبتي

قلت:

- قد فقدت أضراسي بسببه بعدما أحدث لي التهابا في لثتي

- الأخطاء الطبية تحدث دائما .. أين الإشكال ؟ أجاب بلا مبالاة

يا سيدي : قلت هو ليس بطبيب

- وأنا قلت لك ليس شغلي

- فلنفرض إذا أنه طبيب وله مئات الشهادات .. أمن حقه أن يحدث لي ما أحدث ؟

- وماذا أحدث؟ هو لم يضربك .. هو عالجك وهذا الذي تقول عنه خطأ هو شيء بسيط .

- كيف تقول أنه شيء بسيط وأنت لم تكلّف نفسك عناء أن تلقي ولو نظرة عابرة على فمي؟

نهض من كرسيه .. تقدم نحوي قال:

- افتح فمك ..

فتحت ألقى نظرة خاطفة ونحن قيام ثم رجع إلى كرسيه وهو يقول:

- قلت أنه شيء بسيط لثتك لم تحتمل المادة المخدرة فقط وهذا يحدث دائما .

- لا بأس إذا اكتب لي تقريرا أن ليس بي شيء؟

- لا .. قلت لك أنا لا أعطي تقارير عن عمل أطباء آخرين

صمتّ برهة وأنا أحدق تارة إلى الطبيب وتارة إلى الممرضة الواقفة إلى جانبه.. كان صدري يفور غضبا وعقلي يموج بمئات من الكلمات التي تنتظر إشارة الإنطلاق لتخرج ساخنة لاذعة.. لكني تمالكت نفسي.

- حسنا اذا إلى اللقاء .

خرجت وأنا ألعن كل ما حولي من رداءة.. يا الــهي ما أرخص الإنسان .. نعم ما أرخص الإنسان في وطني .

فهمت أنه لم يقم بواجبه المهني والأخلاقي إلا دفاعا عنه وتسترا عليه .. ربما لأن الممرضة طلبت منه ذلك .. ربما لأنه يعرفه .. ربما شيء آخر .. الحقيقة لا أعرف .. كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئا .

فما الذي يجعل قرار طبيب شرعي يعين من أكبر الهيئات تأثر فيه ممرضة

وما الذي يجعل طبيبا شرعيا يرفض الوقوف إلى جانب المريض أو الضحية

وبالمقابل يقف في صف المجرم .. فبعدم قيامه بواجبه وإعطائي تقريرا لا يكون محايدا بل خائنا ..

فليس محايدا من يرى الفساد والدناءة ويبقى ساكتا بل هو خائن وليس محايدا من يشاهد المظلوم يئن تحت ضربات الظالم ويبقى ساكتا بل هو خائن وليس محايدا من يبيع ضميره للأقوى والأغنى بل هو خائن ففرق بين الحياد والخيانة خيانة النفس والضمير والشعب والأمة.

لم أسأله حينها لم لا يقوم بواجبه الموكل إليه كما تُسائل الشعوب المتقدمة موظفيها حتى وإن كانوا رؤساء أو وزراء .. ولم أفكر في أن أرفع أمره إلى مدير المستشفى أو إلى من هو فوقه منزلة لأننا ببساطة في بلد يعتبر فيه الموظف الحكومي عمله كمزية لا كواجب .. ويُشعر مراجعيه أنه يخدمهم صدقة لا نظير مرتب يتقاضاه .. فإن طالبته بتأدية واجبه والقيام على خدمتك في أي مؤسسة يجيبك بعنجهية:

- لست أعمل عندك ؟

متناسيا أنه فعلا ما وُجد في منصبه إلا ليخدمني .. فهو على كل حال لا يعمل في ملك والده .. ولذلك فمعظم موظفي البلد لا يستحقون مناصبهم التي يشغلونها ..

ولو طبقنا الرجل المناسب في المكان المناسب لما بقي أحد من أهل المناصب..

فالفاسد لا ينتج إلا فاسدا والديكتاتورية لا تُنتج إلا الديكتاتورية والساكت على الفساد مشجع له .

زال عجبي من تصرف الطبيب الشرعي عندما انتشر في المدينة خبر الإفراج عن مغتصب الفتاة القاصر المسكينة .. شهد حادث اغتصابها أكثر من أربعين شخصا من سكان المدينة حين حرّروها من بين مخالب ذاك الوحش البشري الذي اغتصبها وسلبها شرفها .. أبرحوه ضربا وسلموه إلى الشرطة التي تولت أمره فيما بعد وسجلتهم كشهود على الحادثة كانت الفتاة في الرابعة عشر من العمر من عائلة بائسة فقيرة .. كل الذين عرفوا قصتها تعاطفوا معها ومع عائلتها .. بعد ثلاث ليال قضاها المُغتصب في السجن .. مثل أمام المحكمة .. قدّم دفاع المتهم تقريرا شرعيا كدليل على براءة موكله .. إذ كان التقرير يؤكد أنه لم يمسها أحد في الفترة الأخيرة وأنها فاقدة للعذرية منذ فترة بعيدة ..

ضاعت شهادة الشهود الذين حضروا ورأوا بأم أعينهم الحادثة وهم جمع غفير يستحيل تواطؤهم على الكذب بسبب تقرير شرعي مفبرك .

ضاع حقها وقبله ضاعت كرامتها بعد أن دفن الموكلون على حماية المجتمع الحقيقة وقبله دفنوا ضمائرهم ..

لماذا ؟ .. فقط لأنه ابن مسؤول كبير ..

لماذا؟ فقط لأنه : "إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد"

إذا .. لا يهمني تقرير الطبيب الشرعي .. فبه أو بدونه ملفي كامل وسأقدم شكواي مباشرة إلى وكيل الجمهورية.. مؤكد أنه سيسمعني ... سيفتح تحقيقا في القضية .. بل ربما سيشكرني لأني مواطن صالح لم أسكت على الظلم ولم أنم على الضيم ..

هكذا سمعته مرة في المحكمة يقول عندما بلّغ مواطن عن إرهابي مشتبه به .. وحين ألقي القبض عليه تبين فعلا أنه كان مسلحا وكان يحمل قنبلة الله اعلم أين كانت ستنفجر وبمن كانت ستودي .. حينها كُرّم ذلك المواطن وأثناء تكريمه وقف وكيل الجمهورية وألقى كلمة تحمل في طياتها الكثير من الإمتنان والشكر فقد قال يومها :

- شكرا لتعاونك فلولاك لم نكن ندري ما كان سيحدث .. لقد أنقذت أناسا وأحييت أرواحا.. هكذا نريدكم أيها المواطنون .. نريدكم أن تتعاونوا مع العدالة .. فنحن بدونكم لا شيء . . فمعا نحقق العدالة .. ويدا بيد نعيد أمجادنا التليدة .. ويستتب الأمن وينعم المواطن بالحرية والكرامة .

جهّزت برقية الدخول إلى وكيل الجمهورية والتي كتبتها عند كاتب عمومي.. لأنه من القوانين المتعارف عليها هنا في المحاكم أن يتقدم ملفك رسالة توجهها إلى سيادة وكيل الجمهورية تكون ملخصا عن قضيتك وما تريد من وراء مقابلته .

كل شيء جاهز الآن .. لم يبق إلا إنتظار يوم الأحد .. فهو اليوم الوحيد لإستقبال المواطنين في المحكمة .

الأحد استقبلني السيد وكيل الجمهورية في مكتبه بالمحكمة بعد أن قدّمت ملفي بما فيه الرسالة التي تتضمن سبب الزيارة إلى كاتبه الجالس إلى يمينه .. نظر إلى الرسالة .. قرأها .. ثم كتب شيئا في السجل المنبسط بين يديه .. ثم مرّر الرسالة إلى وكيل الجمهورية الذي ظل ساكتا .. قلّبها بين يديه .. نظر فيها مليا .. جعل يحرك بين الفينة والأخرى نظارته الطبية بسبابته

صعودا ونزولا .. ثم جعل يقرأ من الأسطر الأخيرة لشكواي بصوت مسموع قليلا ..

"وبعد الإتصال بعديد أطباء الأسنان علم الشاكي أن المشتكى منه ليس بطبيب أسنان مطلقا بل هو مدّع و طبيب مزيف .. وحيث أن ما قام به يُعد تمويها واستهتارا بحياة الناس وانتحالا لصفة الغير .. وبعد أن ألحق ضررا جسيما بالشاكي الذي فقد بسببه أضراس الفك العلوي الأيسر .. وكان سيحدث له ضررا أكبر لا سمح الله ..

وقد لجأت إليكم لا لطلب تعويض عما ألحقه بي بل لكشف ممارسات مخالفة تماما لأخلاقيات مهنة الطب النبيلة ولنكشف للرأي العام عبر عدالتكم الموقرة ما يحدث من إهمال وتقصير في حق الأرواح البشرية ..

وعليه يلتمس الشاكي سماعه وسماع المشتكى منه وفتح تحقيق في القضية لمتابعته قضائيا ولكم واسع النظر فيما ترونه مناسبا".

رفع بصره إليّ بعد أن أنهى قراءتها ثم فاجئني بقوله وبنبرة صارمة :

- لم جئت ؟

ارتبكت قليلا لأني لم أتوقع سؤالا كهذا بعد قراءة فحوى الرسالة .. أم أن كل المسؤولين مبرمجين على لغة واحدة .. لغة ماذا تريد .. لغة لم جئت .. لغة مخاطبة الأسياد للعبيد .. ألن يتعلموا يوما إحترام الإنسان كإنسان ومعاملته معاملة تليق بآدميته... لم أحِر جوابا ..

فأضاف وعيناه ترمقاني بنظرة حادة :

- عند من ذهبت أنت ؟

زاد ارتباكي .. وكأنه يتعمد إرباكي... أشرت إلى الرسالة التي بين يديه وقلت بصوت مبحوح متقطع :

- إلى عيادة أسنان

نظرت إلى الكاتب فوجدته ينظر إلى نظرة فهمت من خلالها أنه لاحظ ارتباكي فقال مخاطبا وكيل الجمهورية بوقار محاولا دفع الإحراج عني :

- يا سيدي .. إنه قد عالج عند شخص ليس بطبيب أصلا ولا علاقة له بالطب .. أنا أعرفه .. وقد سمعت عنه الكثير ..

وبقدر فرحتي بشهادة الكاتب أتعستني كلمات وكيل الجمهورية إذ قال:

- لكنك ذهبت إليه بإرادتك

- لكني لم أدر أنه منتحل صفة طبيب

ضحك وردّد بسخرية..

- منتحل صفة

الحقيقة لم أعرف إلى اليوم سبب ترديده لهذه الكلمات وسخريته تلك ألا يعتبره كذلك؟ ألا ينطبق عليه الوصف؟ ماذا لو انتحل شخص صفة شرطي .. المؤكد أنه سيحاكم بتهمة انتحال صفة شرطي بل صفة رمز من رموز الدولة وركن من أركانها .. وسيُضرب صاحب التهمة بأشد العقوبات وأقساها .. مع أن منتحل صفة الشرطي لن يكون أكثر ضررا من هذا الدعي منتحل صفة الطبابة .

فرضت عليّ الدهشة أن أبقى ساكتا محدقا .. لا أعلم ما الذي يحدث حولي .. أأنا حقا في محكمة وأمام وكيل الجمهورية أم أنني أخطأت العنوان.

نظر مجددا إلى الأوراق .. وقال:

- أنت تركته حقنك بالإبرة .. حقنك بمحض إرادتك

- حسنا .. فلنفرض يا سيدي .. أن ركابا استقلوا حافلة عمومية .. وفي حاجز أمني .. وعند طلب الوثائق للتفتيش الروتيني يكتشف أن سائقها لا يملك رخصة تأهله لسياقة الحافلة .. فمن المُلام .. السائق أم الركاب ؟

ضرب بقبضة يده على سطح مكتبه وصاح وقد انتفخت أوداجه :

- دعنا من الإفتراضات ولتكفّ عن التفلسف .

أكملت محدثا نفسي:

- في الدول التي تحترم نفسها تُلام الرقابة التي سمحت لشيء كهذا أن يقع أما عندنا فكأني بهم يقولون: الركاب هم المُلامون لأنهم ركبوا بمحض إرادتهم.. وهذا ما يسمى بالتهرب من المسؤولية وعدم تحملها عند وقوع الخطوب والمدلهمات

أضمرتها في نفسي ولم أصرح بهذه الكلمات خشية العواقب الوخيمة التي ستجرها عليّ إذ حتما سيعتبرها إهانة للمحكمة الموقرة .. وربما إهانة للدولة .. ورغم أنه الحق والحق يُقال .. ففي وطني من فتح فمه بالحق اقتلع قلبه بالباطل .

قطع حديثي مع نفسي بقوله : المهم أنك شفيت الآن

- نعم قد شفيت والحمد لله .. لكني يا سيدي لم آت من أجل نفسي .. بل جئت من أجل مجتمعي .. من أجل أناس آخرين مازالوا يتداوون عنده وهم لا يعلمون حقيقة أمره.

- وماذا أعمل لهم أنا إن كانوا يتداوون عنده بمحض إرادتهم ؟ ولم أنت الوحيد الذي اشتكى منه .. لماذا لم يشتكي متضررون آخرون كما تدعي ؟

يا إلــهي .. كدت أصرخ في وجهه بأعلى صوتي:

- ماذا تفعل هنا إن كنت لا تدر ماذا تفعل لهم؟ لكني تمالكت نفسي وقلت بهدوء :

- يا سيدي افتح تحقيقا في القضية .. وعيّن لي خبيرا ليجري لي فحصا ويعطي تقريرا عن حالتي .

التفت إلى كاتبه وانفجر ضاحكا وهو يردد:

- أفتح تحقيقا؟ وأعين لك خبيرا؟ أتحسب أن الأمور تجري بهذه البساطة .. أم أنك تريد أن تعلمني كيف أعمل؟

قال جملته الأخيرة هذه وقد احتقن الدم في وجهه وامتلأ غضبا..

- حاشا يا سيدي .. أنا جاهل بالقانون .. وسيادتكم أعلم وأحكم.. وهذه قضيتي بين يديك فانظر ماذا ترى .. واعمل ماتراه مناسبا ..

بدا أن هذه الكلمات قد هدّأت من فورة غضبه قليلا فقال بلطف مبالغ فيه:

- سأوجهك إلى مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان وهم من عليهم أن يفتحوا تحقيقا في القضية ولست أنا .. وعندما يعطونك التقرير .. وأقرأ فيه إثباتهم أنه لا ينتمي إلى سلك أطباء الأسنان .. عندها فقط أستطيع فتح تحقيق .. هكذا تجري الأمور هنا ..

قال لكاتبه دوّن عندك:

- أُحيل على مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان .

أعطاني ملفي.. قال تفضل .. وأومأ بيده إلى الباب أن أخرج

خرجت كما دخلت .. لا نتيجة لحد الآن .. لا بادرة خير لاستئصال هذا الشر من المجتمع ..

خرجت كما خرجت من عند الطبيب الشرعي .. خرجت مبهوتا مقتنعا أكثر من ذي قبل بأننا أمة لا مسؤولة .. أمة غارقة في الفساد والرداءة .. أمة رازحة تحت سياط اللاقانون .. أمة تمشي بشرائع الغاب .

إذ كيف لا يستطيع أن يفتح تحقيقا وهو ممثل الهيئة العليا للقانون في المدينة .. أم أن حياة الناس لا تهم سيادتهم .. فلا أخاله أحالني على مجلس أخلاقيات المهنة إلا ليفتر عزيمتي ويثنيني ويزرع اليأس في نفسي .. إن كان هذا .. فقد نجح في ذلك أيّما نجاح .. لأني لا أعلم حقيقة لماذا فعل الذي فعل وقال الذي قال .... ربما يعرفه هو الآخر .. ربما هو خائف على منصبه فلا يريد إيذان الحرب على أصحاب النفوذ .. لكن أيعقل أن يتمتع هذا الطبيب المزيف بكل هذه القوة والشكيمة أنفوذه أعلى من نفوذ القانون .. لا أدري حقا .. الذي أعرفه أنني ازددت يقينا أننا فعلا غارقون في الفساد..

خرجت وأنا أردّد .. فعلا ما أرخص الإنسان في وطني .. صدق من قال :

"القانون شباك عناكب يجتازها الذباب الكبير ويعلق فيها الذباب الصغير"

بقيت أياما ألملم شتات نفسي وأرتب أفكاري غارقا في دهاليز التساؤلات والإحتمالات .. هل أكمل السير في الطريق الذي رسمته لنفسي . . أم أستسلم للواقع المفروض عليّ .. ربما هو ليس استسلاما .. ربما هو اليأس .. ربما هو الشعور بعبثية محاولة تطبيق القانون في محيط لا يمت للقانون بصلة حتى وإن تغنوا بآلاف الشعارات المنمقة ... ربما عليّ أن أتوقف

وضميري مرتاح ولا لوم عليّ فأولا وقبل كل شيء قد قمت بواجبي وفعلت ما استوجبته عليّ مبادئي .. لن أواصل وكل الدلائل تشير إلى أنني أعدو في حلقة مفرغة .. مبدئي الذي ارتأيته لنفسي وتبنيته جميل وإن حمل في ظاهره القسوة للطبيب المزيف .. لكن ما العمل وقد حيلت بينه وبين تطبيقه الأسباب وتقطعت به السبل وغُلّقت في وجهه الأبواب .

التقيت بالطبيب محمد وعدد من أصحابه الأطباء في مقهى اعتادوا الإجتماع فيه مساء .. المقهى هادئ .. يمنع فيه التدخين على عكس المقاهي الأخرى .. على كل حائط من حوائطه الأربعة تلتصق بعض الرفوف التي تحوي بعض الكتب .. يجتمع في هذا المقهى بعض القراء والمثقفين .. ورغم أنني من المتسربين المدرسيين ولست من المثقفين إلا أنني أُعجبت جدا بالفكرة ..

يقدم لك النادل ما تطلبه من مشروبات .. وتختار بنفسك وتتناول الكتاب الذي ترغب في تصفحه ومطالعته وأنت ترتشف مشروبك .. رقم قلة الكتب التي يوفرها .. وقلة القراء .. إلا أنه بحق استحق لقب المقهى الأدبي.

تحدثنا في الموضوع .. قصصت عليهم ما كان مع وكيل الجمهورية .. انقسموا إلى فريقين .. فريق اقترح أن أرفع أمر وكيل الجمهورية إلى النائب العام وأشكوه إليه .. الفريق الثاني اقترح أن أجاري وكيل الجمهورية في طلبه وأن أتقدم بشكواي إلى مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان..

أما رأي الفريق الأول فرميته وراء ظهري .. فمشكلتي الأساسية مع الطبيب المزيف وهو مدني لم أستطع حلها .. وأشكو وكيل الجمهورية .. ستتعقد أموري أكثر . ولا أريد مشاكل أخرى تسّاقط على رأسي العاري من أي واق

يقيني من المخاطر المجهولة .. أما رأي الفريق الثاني فناقشناه كما ناقشته قبلا مع نفسي إن لجأت إليهم .. هل سيتحركون ويقومون بواجبهم الذي تفرضه عليهم أخلاقيات مهنتهم .. أم أن حالهم لا يعدو حال سابقيهم .. الحقيقة فقدت الثقة في كل المسؤولين .. فإذا كان الطبيب الشرعي يأنف من تقديم تقرير على حالتك ولو كانت بالإيجاب تسترا على الجاني .. وإذا كان وكيل الجمهورية يقول : وماذا أفعل أنا ؟ .. كيف يا تُرى سيكون رد أعضاء مجلس أخلاقيات المهنة .

لم أتحمس كثيرا للفكرة رغم محاولة الطبيب محمد وأصدقائه دفعي قدما وطمأنتي بأنهم يعرفون نائب رئيس المجلس الأخلاقي لكونه زميلا لبعضهم أيام الدراسة الجامعية .. وبدؤوا في الإشادة به وبنزاهته وبأنه سيكون خير عون لنا لدفع هذا الشر المستطير .. رغم محاولتهم تلك إلا أن قراري قد اتخذته وانتهى الأمر ..

حسمت أمري .. لن أواصل .. سأتوقف عند هذا الحد .. وسأوفوّض أمري إلى الله كما كل العاجزين .

عدت إلى حياتي الماضية وقد طويت صفحة الطبيب المزيف والعدالة . . أصبحت منذ الآن قصة من الماضي .. ذكرى وأي ذكرى .. ذكرى خلّفت الكثير من الألم ..

ألم في نفسي وألم في جسدي .. ألم مادي وآخر معنوي .. خسرت أضراسي .. خسرت أموالي .. حُرمت ابتسامتي .. تلك الإبتسامة التي اعتدت ابداءها لكل الناس .. أو ليس ابتسامتك في وجه أخيك صدقة .. هكذا علمنا الإسلام .. علمنا أن نبتسم في وجه من عرفنا ومن لم نعرف .. علمنا أن نبتسم وقت

الإبتسام .. وعلمنا التكشير والصرامة وعدم الرضوخ للحيف حين يطالك الإجحاف .

ولا أنسى أبدا الحالة النفسية السيئة التي عشتها ولا زالت بقاياها عالقة في ثنايا روحي تأبى مغادرتي .. كيف لا ومكان الأضراس الخالي يذكرك دوما بالحادثة كلما فكرت النظر بالمرآة .. وإضافة إلى تشوه منظر فمي إلا أن الذي يحز في نفسي أكثر أني لم أستطع أن أضع له حدا وأحصل على حقي .. لكن لا بأس .. فلن أندم أبدا على ما قدّمت من أسباب وما طرقت من أبواب .. فلو عاد بي الزمن للوراء لفعلت الذي فعلت .. بل كنت سأقاضي أي طبيب يُجرم بحقي بما يسميه عبثا خطأ طبيا ولو كان يملك عشرات الشهادات وأعلى المؤهلات .. لأنه حق مكفول قانونيا .. والذي صار للأسف حقا مكفونا .. فحدث الذي حدث وجرت الأمور كما لم أتوقعها مطلقا.

عدت إلى حياتي وقد أخرجت الطبيب المزيف من رأسي وجعلت خبره وراء ظهري . . انهمكت في العمل .. اشتقت إلى عملي في ورشة النجارة .. فقد غبت عنه طويلا .. رنّ هاتفي المحمول .. أخرجته من جيبي .. كان رقما جديدا ..

- ألو نعم

- ماجد

- نعم تفضل

وكم كانت دهشتي حين سمعت المتكلم يقول : معك الدكتور سلطان .

- من؟ قلت غير مصدّق

- الدكتور سلطان طبيب الأسنان .. أنسيتني ؟

- وكيف أنساك .. ماذا تريد؟

- أريد أن أراك

- لا بأس لك ذلك

- حدد الوقت والمكان المناسبين لك

أنهيت المكالمة بعد أن حددت له موعدا في مقهى شعبي قريب من حيّنا .. أول مقهى فكرت فيه هو ذلك المقهى الأدبي .. لكني طردت الفكرة سريعا من رأسي واقترحت مقهى آخر .. لأنه ببساطة لا يستحق أن يجلس في مكان يرتاده المثقفون.. فهو لا يستحق أن ينتمي إليهم وإن ادّعى ما ادّعى..

لم أسأله أثناء المكالمة ماذا يريد من وراء مقابلتي .. ولا كيف حصل على رقم هاتفي.. ولا كيف تذكرني بعد كل هذه المدة.. هل سيعتذر لي على خطئه ووقاحته .. رغم أني كنت أتمنى أن يُطبّق عليه القانون وأن تسلط عليه أقسى العقوبات .. رغم أني لم أبلغ مُناي في وضع حد له .. إلا أنني الآن سأكتفي منه بإعتذار إن جاءني معتذرا .. أوليست ديّة الكرام الإعتذار.

نعم سيكفيني منه اعتذار .. بل ربما سأعتبر ذلك انتصارا .. وإن كان من قبيل انتصار الجبناء .

وصلت قبله إلى الموعد المحدد .. جلست في ركن قصي من المقهى .. لم تمر سوى لحظات قليلة حتى دخل .. جال ببصره بين الطاولات .. كان يمسح المقهى بعينيه بحثا عني .. رفعت يدي لأنبهه إلى مكان جلوسي .. انتبه لإشارتي التقيت عينانا ..

تقدم نحوي بمشيته المغرورة وعنجهيته المعتادة .. سحب الكرسي المقابل لي وجلس .. ودون أن يلقي التحية أو أن يبادر إلى مصافحتي .. قال بصوت أجش وبنظرات حادة:

- تريد أن تدخلني السجن إذا ؟

عرفت حينها أنه قد علم بالموضوع .. لكن من أخبره .. على كل لا يهمني..

رددت في غير مبالاة:

- أليس هذا ما تستحقه؟.

- كيف تجرأت .. ألم تعلم من أكون ؟

- لا يهمني من تكون .. كن من شئت . . الناس سواسية أمام القانون .. وأنت كدت تودي بحياتي .. أنا إنسان .. أليس هذا كافيا ؟

- أنا دكتور يا هذا .. إياك أن تفكر أنك تستطيع إلحاق الضرر بي.

- أتهددني؟

- لست أهددك .. أنا أعرفك قدرك

نهضت من مكاني وقد احمر وجهي غضبا :

- اسمع يا هذا الذي أعرفه أنك تمارس مهنة أنت دخيل عنها وهي براء منك و ..

قاطع كلامي:

- ومن تكون أنت حتى تحاسبني ؟

رمقته بنظرة احتقار وازدراء ومشيت .. أمسك بذراعي محاولا إيقافي .. نزعت يدي من يده بقوة وصرخت في وجهه صرخة استرعت انتباه كل من كان في المقهى..

- لا تلمسني.. إنتهى النقاش .. وليكن في علمك أني لن آل جهدا كي أغلق عيادتك .. سأفعل ما في وسعي لأراك خلف القضبان لتلقى جزاءك ..

لم يفُه بكلمة .. بقي صامتا محدقا مندهشا من ردة فعلي .. خرجت مسرعا قبل أن أفقد صوابي واضطر إلى تحطيم أسنانه وتهشيم أنفه .. فقد اجتاحتني رغبة جامحة للبطش به لحظتئذ لولا أن تمالكت نفسي وجمحت ثيران غضبي .

رجعت في المساء إلى ذاك المقهى الأدبي كما أحب أن أطلق عليه .. التقيت بالأطباء كانوا جالسين في طاولتهم المعتادة .. جلست إليهم .. حدثتهم بخبري وما كان لي مع سلطان.. أخبرتهم بإستفزازه لي وتهديده إياي .. ما زال يتبجح بلقب الدكتور .. أنبأتهم بقراري الجديد الذي اتخذته .. وكم فرحوا بذلك .. سأقدم شكوى إلى مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان .. أعرف أن المعركة شاقة وقاسية وطويلة الأمد .. لكن ليس من خوضها بدّ .. ليقضي الله أمرا كان مفعولا ..

اتصل أحد الأطباء وهو الطبيب عبد الله بنائب رئيس المجلس وهو صديق قديم له اسمه مزيان .. كان زميلا له أيام الدراسة الجامعية .. قصّ عليه القصة .. أخبره أنه ومجموعة من أطباء المدينة على استعداد أن يدلوا بشاهدتهم بأنه ليس طبيبا .. روى له كيف أنهم يستقبلون يوميا عدة حالات أجرم في حقها هذا الجزار الدعيّ .. طمأنه نائب الرئيس أنه إن ثبت فعلا أنه منتحل صفة ولا ينتمي إلى سلك الأطباء فسيضربون بقبضة من

حديد من أجل معاقبته ولن يهمهم أبدا من يكون .. كما طلب منه أن يمرر لي الهاتف لأكلمه شخصيا .. وهو ما تم فعلا .. أجبت على بعض أسئلته .. طلب مني أن أتقدم إلى مكتبهم وأن أقدم شكوى تتضمن جميع تفاصيل الضرر الذي ألحقه بي والمراحل العلاجية التي اجتزتها وأن أمُرّ عليه في عيادته ليعاينني متى ما سنحت لي الفرصة أكدت له جاهزيتي لفعل ذلك .. وبعد أن أخذت منه عنوان عيادته وعنوان مجلس الأخلاقيات الذي كنت أجهله قبلا .. شكرته و أعدت الهاتف للطبيب عبد الله.

عدت إلى البيت وقد استبشرت خيرا .

جلست في ساعة متأخرة من الليل أكتب رسالة الشكوى على غرار الرسالة السابقة التي قدّمتها لوكيل الجمهورية .. لكن لمّا كانت هذه موجهة إلى مجلس أخلاقيات طب الأسنان.. وبما أن كل أعضائه من الأطباء فلا بد من شيء من التفصيل فكانت كالتالي :

"الشاكي: ماجد

المشتكى منه : سلطان

إلى السيد رئيس مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان

الموضوع: شكوى

يتشرف الشاكي أن يتقدم إلى سيادتكم المحترمة بشكواه هذه والمتمثلة في الوقائع التالية:

حيث تعود وقائع القضية إلى بداية شهر أكتوبر إذ تقدّم الشاكي إلى عيادة المشتكى منه لعلاج ضرس من أضراس الفك العلوي الأيسر وقد قام بتولي المسؤولية المشتكى منه حيث قام بعد عملية فتح الضرس بتعبئته بالحشوة

البيضاء كما هو متعارف لدى أصحاب الإختصاص .. لكن الآلام استمرت في تلك الليلة مما اضطره في الغد إلى العودة إلى نفس العيادة .. المشتكى منه أخبره أنه ليس هو نفس الضرس بل الضرس الملتصق به .. ليتحول إلى الضرسين ٢٦ و ٢٧ وقام بفتحهما وقد قام بعلاجه وحقنه بإبرة تبين فيما بعد أنها غير معقمة مما سبب له آلاما حادة ومرض والتهاب اللثة بحسب التقارير الطبية المرفقة مع الرسالة .. وحيث أن آلام الشاكي لم تتوقف بل تضاعفت وازدادت حدة في تلك الليلة مما اضطره إلى الاستنجاد بالطبيب محمد الذي فتح عيادته ليلا وقام بفتح الضرس المتعفن الذي تسبب فيه صاحب العيادة الأولى .. وقام بعلاجه ومنح له وصفة طبية .. كما أخبره بوجوب إجراء عملية جراحية في أسرع وقت لإستئصال ما تسببت فيه الإبرة الغير معقمة.. وهو ماتمّ بعد ذلك .

وبعد الإتصال بعديد أطباء الأسنان علم الشاكي أن المشتكى منه ليس بطبيب أسنان مطلقا بل هو مدّع و طبيب مزيف .

وحيث ان ما قام به يُعد تمويها واستهتارا بحياة الناس وانتحالا لصفة الغير.. وبعد أن ألحق ضررا جسيما بالشاكي الذي فقد بسببه أضراس الفك العلوي الأيسر وكان سيُحدث له ضررا أكبر لا سمح الله وقد لجأت إليكم لا لطلب تعويض عما ألحقه بي بل لكشف ممارسات مخالفة تماما لأخلاقيات مهنة الطب النبيلة من استهتار و إهمال وتقصير في حق الأرواح البشرية

وعليه يلتمس الشاكي سماعه وسماع المشتكى منه وفتح تحقيق في القضية لمتابعته قضائيا ولكم واسع النظر فيما ترونه مناسبا".

تقدمت صباحا إلى المجلس .. لم تكن إدارة كبيرة كما تخيلتها .. كان مكتبا صغيرا في الطابق الثاني من عمارة عمارة تجارية .. تشتغل فيه موظفة واحدة هي السكرتيرة .. المكتب مقسم إلى قسمين .. الجزء الأكبر ليس فيه سوى طاولة كبيرة مستديرة اجتمعت حولها بعض الكراسي .. يوحي بأنه مكان الإجتماعات.. أما الجزء الأصغر والذي لم يكن يفصل بينهما سوى باب هو جزء مخصص للسكرتيرة .

استقبلتني وكانت شابة في مقتبل العمر .. هادئة مؤدبة .. تتقن فن الإنصات حين أتكلم .. متمرسة في أدب الحديث لمّا تتحدث .. شرحت لها قضيتي .. أعطيتها الملف مرفقا برقم هاتفي وعنواني للتواصل معي .. قالت أنها سترسل إلي استدعاء فور دراسة القضية من قبل أعضاء المجلس .. الأعضاء كلهم من أطباء الأسنان ويُنتخبون للدخول إلى المجلس بعد تأديتهم اليمين لأداء مهامهم تطبيقا للقانون وحرصا على أخلاقيات المهنة .

عرّجت بعدها على عيادة الطبيب مزيان .. كانت قاعة المرضى مكتظة بالمرضى .. لكن ما أن أخبرتُ الممرضة بأن تُعلم الطبيب بأن صاحب قضية الطبيب المزور هنا حتى أذن لي بالدخول فور خروج المريض الذي عنده ..

كان مزيان في الأربعينيات من العمر .. أشقر الشعر أخضر العينين .. قصير القامة فيه شيء من بدانة .. استقبلني بابتسامة ..

- كيف حالك؟

- الحمد لله

- أنت ضحية ذلك الحقير إذا ؟

- نعم .. أنا هو

- وكيف حالك الآن ؟ هل شفيت ؟

- الحمد لله تعافيت نوعا ما

سألني بعض الأسئلة.. أجبته عنها .. ثم أخبرني أننا لا نملك دليلا ملموسا .. إذ أكد أن الأمر ليس بما نعرفه بل بما يمكن إثباته في المحكمة.. هنا أخرجت بطاقة مواعيده الأصلية إذ كنت دفعت في ملف الشكوى عند السكرتيرة نسخة مصورة عنها فقط ..

أعطيته البطاقة .. قلبها بين يديه .. حين قرأ ما كتب فيها:

- الدكتور سلطان طبيب جراحة الأسنان.

ابتسم ابتسامة سخرية وابتسمت معه على إثرها .. لكن ما لبثت ابتسامتي أن انقشعت سحبها حين قال:

- هذه البطاقة ستبقى معي هنا .. لأنها مهمة جدا بالنسبة لي .. نعم مهمة جدا

عبرت ظنون شتى في ذهني فقلت في عجل:

- لا ..لا يمكن تركها.. فهي دليلي الوحيد

رد بصوت هادئ..

- اسمع .. نحن سنجهّز ملفا كاملا للقضاء عليه .. سنرسل إلى مديرية الصحة تقريرا وهي بدورها ستدخل معنا في القضية .. ومن ثم سنرفعها إلى العدالة .. وبما أنك الضحية فسنتأسس معك كطرف مدني .. في المحكمة لا بد من البطاقة الأصلية .. لأن أي نسخة منها قد تعتبر مزورة .

همست..

- فهمتك يا سيدي .. لكن البطاقة ستبقى معي وعندما يحين وقت إبرازها ..سأكون والبطاقة حاضرين .

- ألا تثق بي ؟ قالها بلطف

- بلى يا سيدي وإلا ما كنت جئتك أصلا

- إذا اتركها معي ولا تخش شيئا .. هي معي في أمان لا تقلق

كأني استسلمت لرأيه أخيرا فتركتها على مضض وجلست على الكرسي الطبي ليفحصني بعد أن طلب مني ذلك .. جلست وأنا أتوجس منه خيفة ..

فحصني .. تأكد من الضرر الذي لحقني .. أضراس مخلوعة .. أثر العملية الجراحية الذي لا يزال جاثما على لثتي لا يريد أن يبرحني .. كأنه يريد أن يذكرني كل مرة أتحسسه فيها بلساني بذلك الدعيّ وما سببه لي من آلام .. آلام حسية قد زالت .. وآلام نفسية لا تزال تحيك بين ثنايا صدري ..

أبعد الكاشف الضوئي عن وجهي وقال:

- ستحكي في المحكمة كل ما حكيته لي الآن .. إياك أن تغير أقوالك لأنك إن فعلت ذلك .. فسنرفع نحن قضية ضدك ..

كأني لمست في كلامه هذا تهديدا .. يا إلــهي كم أكره التهديد.. نظرت إليه باستغراب وقلت:

- ولماذا أغير أقوالي ؟ لم أفهم ؟

- ليكن في علمك أن هذه قضية كبيرة .. وستخرج للرأي العام .. العدالة لن تتسامح معه .. ستضربه المحكمة كحد أدنى بعشر سنوات سجنا .. أخشى أن تأخذك الرأفة به فتغير أقوالك.

ارتجفت فرائسي .. ازدردت ريقي بعد أن جف حلقي ..ثم قلت:

- فليكن ما يكون .. أنا هنا لتحقيق العدالة .. فلتحكم العدالة بما تراه الحقّ .. لا يهمني .. ففي الأخير هو من أراد ذلك لنفسه ..

- حسنا إذا .. أخبرتك بذلك لتعلم .. لأننا أبدا لن نتسامح معه .. أمثال هؤلاء يجب أن يُبادوا .. لو كان الأمر في يدي لأعدمته ..

قال ذلك وهو يضغط على فكية في شيء من الغضب ..

ودّعته حين أنهى فحصه وخرجت من عنده .. لم يقل شيئا جديدا عن حالتي .. خرجت وقد تركت عنده البطاقة كما أراد .. خرجت وقد امتزج في داخلي شعوران متناقضان .. شعور بأني قد خسرت القضية لأني تركت عنده دليلي الوحيد .. وشعور بأني قد ربحت القضية حين كسبت حليفا جديدا خاصة أن بوادر الخير قد لاحت من خلال كلامه .. فأي شعور هو الأصدق .. وإلى أي حدس سأركن وأطمئن .. الجواب حتما لا أدري .

بقيت أياما أنتظر استدعاء من مجلس أخلاقيات المهنة وأنا متفائل خاصة أني كنت قد التقيت بالأطباء في المقهى الأدبي وكانوا قد طمأنوني بخصوص بطاقتي التي تركتها بحوزة الطبيب مزيان حيث اتفق كل من كانت له معرفة سابقة به أنه رجل نزيه شريف لا يغتر بمال ولا يطمع في هبة .. محافظ على فرضه حاج لبيت الله الحرام .. وهو إضافة إلى شرف نسبه وعلو حسبه هو من أعيان الأغنياء في المدينة وأرباب المال ..

إذا فهو ليس بطماع ويستحيل أن يتاجر بالقضايا الإنسانية وآلام الناس . كانت هذه هي النتيجة التي خلصنا إليها.

كان سلطان يمرّ على محل النجارة الذي كنت أشتغل فيه.. في غدوه ورواحه في خيلاء وغرور واضح يرمقني بنظرات فاحصة من أسفل قدمي

إلى ناصية رأسي ثم يشيح بوجهه بعد أن يسحب نظرته تلك بإستعلائية واضحة .. وأحيانا كان يبصق في الأرض أثناء مروره .. كان يتعمد فعل ذلك ليهينني ويغيضني بعد الذي كان بيننا في شأن مسلخه الذي يسميه عيادة وكأنه يقول : هاأنذا أفعل ما يحلو لي ولن تستطيع فعل شيء أمامي .. وقد نجح فعلا في إغاضتي فقد كان الدم يفور في عروقي وتغلي رأسي بعد أن أشعر برسالته قد وصلتني .. أفكر أحيانا في أن استلّ عصى خشبية وأنهال عليه ضربا على فمه حتى تتهشم أسنانه وأحقق عدالتي بيدي .. وأحيانا كثيرة أرفع يديّ إلى السماء سائلا الله أن يعجل الإنتقام منه .. كنت أعرف يقينا أن الإنتقام الإلهي منه لا بد لاحق كما أعرف نفسي ..لكن متى سيأتي؟.

إلــهي عجل فلم أعد أطيق صبرا .. كنت أصبّر نفسي بأن كل شيء سيتغير مع الوقت وسيصبح المهان وأنا المهين بعد أن أخضعة لسلطة القانون .. فلنرى حين يصله الإستدعاء ويعلم اني قد لجأت لمجلس أخلاقيات المهنة كيف ستكون ردة فعله؟ سنرى إن كان سيبقى على حاله هذا أم أنه سيأتيني صاغرا مرغما ..

أليس القانون كما الموت لا يحابي أحدا ولا يستثني أحدا

بما أنه لم يتصل بي أحد من مجلس أخلاقيات المهنة أخذت المبادرة واتصلت بالسكرتيرة:

- السلام عليكم

- وعليكم السلام .. نعم تفضل

- أنا ماجد صاحب قضية الطبيب المزور

- نعم ماجد .. كيف حالك ؟

- الحمد لله .. شكرا على السؤال

- الحمد لله .. ودون أن أسألها قالت :

- اسمع ماجد كنت سأتصل بك اليوم .. لقد اجتمع أعضاء المجلس ودرسوا قضيتك وقد حددوا يوم الخميس موعدا لإجتماعكم في المجلس ..

فرحت بذلك وتهللت أساريري .. سألتها كيف ستكون ظروف المقابلة.. قالت:

- أنهم سيستجوبوننا أنا وسلطان كلا على انفراد .. ثم إن ثبتت صحة دعواك فإنهم سيرفعون القضية إلى أروقة العدالة ليلقى جزاءه .

شكرتها .. وأغلقت السماعة بعد أن تنفست الصعداء .

كنت في طريقي إلى مجلس أخلاقيات المهنة يوم الخميس حينما مررت بعيادة سلطان كانت عيادته مفتوحة عكس ما كنت أتوقعه فقد توقعت أن يغلق عيادته احتياطا خاصة لما وصله الإستدعاء .. أم أنه لا يعير أحدا اهتماما .. لا أظنه سيحضر استجواب المجلس لأن المجلس غير حكومي واستدعاؤه لا يعني الإلزام كما أنه لم يتبقى على الموعد إلا ساعتين وهو لا يزال منهمكا في سلخ العباد داخل مسلخه .. كل المؤشرات حول مثوله أمام المجلس إذا سلبية ..

استقبلتني السكرتيرة لما دلفت إلى المجلس .. طلبت مني الجلوس والإنتظار في القسم المخصص للإجتماعات .. سحبت كرسي من الكراسي الكثيرة المجتمعة حول الطاولة المستديرة .. جلست أعبث بهاتفي وأنا غارق في

بحار أفكاري المتلاطمة .. وما هي لحظات حتى دخل أحدهم .. سلّم علي ثم دخل إلى السكرتيرة ولأنه لا يفصل بين القاعتين إلا باب صغير فقد سمعته يسأل عن المدّعي والمدعى عليه ..

أجابته أن الشاب الجالس في القاعة هو الضحية أما المدّعى عليه فإنه لم يحضر بعد .. فهمت أنه أحد أعضاء المجلس .. خرج بعد ذلك .. جلس إليّ بعد أن صافحني وعرّف بنفسه .. كان عضوا في المجلس ..

سألني بعدها: إذا أنت هو الضحية ؟

- نعم أنا هو سيدي

- هل لنا أن نتحدث قليلا في انتظار أن يحضر باقي أعضاء المجلس

- بالطبع .. تفضل

- اسمع قد بحثنا في سجلاتنا فلم نعثر على اسمه في لوائح أطباء الأسنان المسجلين عندنا في الولاية ..

كنت قد ارتحت كثيرا لسماع قوله هذا مما خفّف من توتري واضطرابي

أردف قائلا:

- لكن أريد أن أسألك سؤالا واصدقني القول.. هل كنت تعرفه قبلا ؟

- أتقصد معرفتي بكونه ليس طبيبا ؟

- نعم ذلك قصدي

- لا طبعا لم أكن أعرف .. بل كيف لي أن أتداوى عنده لو علمت بأمره ..

أفلتت مني ابتسامة تهكم وأنا أقول ساخرا:

- كان أهون عليّ أن أتداوى عند لحام أو سمكريّ بدل أن أتداوى عنده

ابتسم لإبتسامتي وهو لا يزال يحدّق بي وعيناه تغوصان في أعماق عيني في محاولة لاستكشاف أغوار نفسي وما أُضمره في أعماق سري ..

صمت برهة ثم أردف:

- كيف عرفت بعدها أنه طبيب مزور ؟

- أخبرني الطبيب محمد ..

أومأ برأسه موافقا .. ولا أدري أدلالة على اقتناعه بجوابي أم معرفة بالطبيب محمد.

تابعت قائلا بعد أن أيقنت أن إجابتي تحتاج لإستطراد:

- وقد سألت غيره من أطباء الأسنان وكلهم أجمعوا مما لا يدع مجالا للشك أنه فعلا طبيب مزيّف .. علمت وتأكدت يقينا حينها بخبره .. وقد شكاه أطباء مدينتنا لمديرية الصحة للولاية لكن للأسف لم يحدث تغيير ولم تحصل النتيجة المرجوة ..

ثم سألته:

- كيف ستتصرفون مع القضية ؟

- لا تستبق الأحداث .. سننتظر حتى يجتمع كل أعضاء المجلس ولنسمع المدعى عليه ثم لنرى بعدها ما سنقرر في حقه ..

وما هي إلا لحظات حتى دخل رجل آخر كان في الخمسينات من العمر كان قصيرا أعرجا شعره أبيض وله شارب طويل امتدت إليه يد الشيب هو الآخر كان يرتدي معطفا أسودا ويحمل في يده محفظة أوراق سوداء .. سلم علينا ثم تقدم إلينا فصافحنا .. تبادل بعض الكلمات المقتضبة بالفرنسية مع زميله ثم مضى .. دخل إلى السكرتيرة .. سألها كما سأل زميله

الأول عن حضور المدعي والمدعى عليه .. أجابته كما أجابت الأول الشاب الجالس في القاعة هو الضحية أما المدعى عليه فلم يحضر بعد

قام العضو الجالس بجانبي ولحق به .. بقيا عند السكرتيرة .. تجاذبا بعض أطراف الحديث .. كنت أسمعهم كأن لا حائل بيننا ولا حاجب . . سمعت السكرتيرة وهي تتصل بأعضاء المجلس المتبقين واحدا واحدا .. فهم لحد اللحظة متأخرون عن الموعد بنصف ساعة .. بعد لحظات فهمت أن بعضهم اعتذر عن المجيء .. لا أعلم عدد الأعضاء المتغيبين .. الذي أعرفه أن عضوين من أعضاء المجلس فقط حضرا ..الذي تجاذبت معه أطراف الحديث وهو رجل خمسيني هو الآخر به صلع في مقدمة رأسه .. والآخر هو الأعرج الذي تبين فيما بعد أنه رئيس مجلس أخلاقيات المهنة .. مزيان لم يكن أيا منهما .. فهو لم يحضر أيضا وكان من جملة المعتذرين .. سلطان المدعى عليه لم يحضر أيضا ..

الساعة تشير إلى الثالثة مساء.. وأنا لا أزال جالسا مكاني.. دعتني السكرتيرة للدخول إليهم .. دخلت .. اعتذروا لي بعد أن تم تأجيل سماعي ليوم آخر سيحدد موعده لاحقا ..

سألوني:

- إن كان استدعاء سلطان قد وصله .. فأجبت بأن لا علم لي بذلك .. كل ما أعرفه أنه ما يزال متبجحا يعمل في عيادته زورا وبهتانا ..

سألت الرئيس إن كانوا قد أخطروا مديرية الصحة كما أخبرني نائبه مزيان بذلك.. أجاب بأنه ليس بعد لكنهم سيفعلون ذلك حتما ثم تابع :

- من جهتنا اطمئن سنفعل اللازم لإحقاق الحق وإبطال الباطل لكن كل خوفنا منك أنت أن تنقلب على عقبيك ..

طمئنته:

- من جهتي أيضا كن متأكدا .. فلن أرتاح حتى أراه مسجونا يلقى جزاءه تستطيع الآن الذهاب .. إلى أن نبعث لك وله استدعاء آخر ..

- أنا في الخدمة في أي وقت تحددونه وترونه مناسبا سأكون جاهزا

خرجت بعد أن أبدوا خالص معذرتهم .. ورددتها بأن لا مشكلة في ذلك إطلاقا ..

في المساء كانت لنا جلسة أخرى في المقهى الأدبي .. أنا وأطباء أسنان المدينة.. رويت لهم تفاصيل اللقاء في مجلس أخلاقيات المهنة .. تناقشنا في تفاصيل أحداثها .. حلّلنا وفصّلنا .. لم نفهم أمرين اثنين:

الأمر الأول : لماذا لم يحضر سلطان ؟ هل وصله الاستدعاء أم لا؟ علم أني قد شكوته أم لم يعلم حتى اللحظة؟.. والثاني لماذا أصلا يصرون على استدعاءه رغم تحققهم وتأكدهم واتضاح رأيهم بشأنه وانقشاع سحابة شكهم ..

أما التساؤل الأول فلم نُعره اهتماما كبيرا ففي الأخير سيحضر لا محالة إن في المرة الثانية أو في الثالثة ولا بد ..

الذي أخذ نصيبا وافرا من حديثنا هو التساؤل الثاني والذي بدوره خلق موجة تساؤلات أخرى ..

أمن حق مجلس أخلاقيات المهنة أن يستجوب شخصا لا يمت له بصلة ؟ لماذا لا يختصرون الطريق ويرفعون قضيته مباشرة إلى أروقة المحاكم ؟ ما الذي يريدونه من خلال استدعاءه وقد ثبت ما ثبت ؟ وهل حتم لازم عليه الاستجابة لاستدعائهم خاصة أنها هيئة مستقلة غير حكومية.

اتفق جلسائي على كلمة واحدة وهي أن القضية تسير في الطريق الصحيح ولم يشذ أحد منهم عن هذا القول ..

توكلنا على الله .. فلنحسن الظن ولنأمل خيرا إن شاء الله فقضيتنا عادلة والظلم وإن طال الزمن ماحق وستبدي الأيام ما أضمرت النفوس ..

عدت إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل أحمل تساؤلاتي وأفكاري في رأسي ..

استقبلتني والدتي فور الولوج للبيت .. كأنها كانت في انتظاري على غير عادتها كان وجهها ينذر بأن مكروها قد حصل

- خيرا إن شاء الله .. ألم تنامي بعد ؟ .. هل حدث شيء ؟

أمسكت بيدي وأسرعت بي إلى الداخل وشفتاها ترتعشان وقلبي يرتعش لارتعاشهما .. أجلستني على أقرب أريكة متهالكة ثم قالت بصوت مبحوح متقطع فيه الكثير من اللوم والعتاب وهي لا تزال ممسكة يدي :

- لماذا اشتكيت بذلك الطبيب ؟ ألم أقل أنه عليك أن تنسى أمره ؟

- لكنه ليس بطبيب كما سبق وأخبـ ...

قاطعتني:

- لا يهمني طبيب .. ليس بطبيب .. لماذا تريد أن تورط نفسك في المشاكل وتورطنا معك

- لكن هل حدث شيء .. أثرتي فضولي .. أرجوك أخبريني

- قد جاء قبل قليل بحثا عنك

فزرت كأن عقربا لدغتني..

- ماذا ؟ هل هددّك .. أرجوك حدثيني بكل ما حصل

- لا..لا بل جاء منكسرا ذليلا يقول أنه جاء يعتذر لك على خطئه ويريدك أن تسحب شكواك وقد أضاف أنه على استعداد تعويضك كل أضرارك المادية والمعنوية .

ابتسمت ابتسامة النصر بعد أن هدأ روعي وزال خوفي..

- إذا حُق لك أن تفرحي لا أن تحزني ياأماه ولا تخشي شيئا فقد انكسر غروره أخيرا .. كما أنه لم يخطئ معي خطأ واحدا فقط بل خطأين الأول عندما ارتكب خطأه في حق أضراسي والثاني عندما تعالى وتبجح فلا تخافي .. أنا صاحب الحق وأنا الآن في موضع قوة بعد أن كنت في موضع ضعف فالأطباء سندي ومجلس أخلاقيات المهنة معي والعدالة حتما ستنصفني .. فدعي عنك القلق وهيا بنا إلى النوم فقد تأخر الوقت ..

قالت وقد قامت من مكانها وربتت على كتفي في حنان:

- خذ بنصيحتي يا ولدي فإني لا أملك سواك في الدنيا بعد فقدت والدك وأخاك ولا أريد أن أخسرك أيضا .. صحيح أنك صاحب الحق إذ لا يتمارى في هذا عاقلان .. لكن خذ حقك بأسهل الطرق .. أسلك أيسر السبل .. خذ تعويضك منه واسحب شكواك .. ولا داعي للمحاكم وتبعاتها ..

- حسنا يا أماه .. لن يكون إلا ما أراده الله .. تصبحين على خير ..

لن أكون كاذبا إن قلت أنّني بتّ ليلتي منتشيا مغتبطا .. كيف لا وقد حان وقت انهيار امبراطورية سلطان التي بناها على حساب صحة الضعفاء وآن لي أن أسحب من تحت قدميه بساط عرشه الموهوم .. نعم آن أخيرا لظلمه أن يندحر وإلى الأبد .

لم أكن أعلم لماذا تريدني أمي أن أترك القضية .. ربما كانت تخشى أن تفقدني كما فقدت أخي التوأم من قبل .. غادرت مقاعد الدراسة في المتوسط بينما أكمل هو طريقه التعليمي بجد واجتهاد .. ولجت العالم الحرفي واشتغلت في النجارة لأعيل عائلي الصغيرة بعد أن تركنا أبي في تلك السن الصغيرة ومضى إلى العالم الآخر ..

تحمّلت المسؤولية منذ الصغر وكسبت الرزق بكد يميني وعرق جبيني ، اجتاز أخي البكالوريا ونجح . . قرّر أن يلتحق بالجيش .. حاولت والدتي ثنيه عن قراره بكل ما أوتيت من قوة لكنها لم تفلح .. أرادته أن يكمل تعليمه الجامعي ليصير ذات يوم ذا منصب محترم مرموق .. ظروف المعيشة الصعبة التي عشناها كانت أكبر دافع دفعه للإلتحاق بالجيش .. اجتاز الفحص وقُبل .. كانت له آمال كثيرة جدا .. كنت أتعجّب كيف يسع رأسه الصغير كل هذه الآمال الكبيرة ؟

كان يهاتف أمي يوميا وهو في الثكنة .. يطمئن عليها ويُطمئنها .. كان يعدها أنه سيعوض عليها كل سنوات الحرمان التي مرّت عليها .. سآخذك معي إلى الحج .. سنزور بيت الله الحرام .. لكن قبل ذلك سأشتري لك غسالة ثياب .. لن تتشقق يديك الطاهرتين بعد الآن .. سأركّب مكيف هواء في البيت .. لن تشعري بحرارة الصيف بعدها .. ما دخلت الجيش إلا لأجل راحتك يا أمي عسى أن أعوضك ولو شيئا يسيرا مما قدمته لنا .. هكذا كان يردّد على مسامعها كلّما هاتفها ..

حين تُنهي الإتصال أرى وجه أمي يتهلّل بشرا وسرورا .. كان يعرف كيف يُدخل الفرحة إلى قلبها .. كان يسعى إلى إرضائها . . كان يتباهى أمامها .. عليك أن تفخري بي يا أمّاه فأنا خادم لهذا الوطن .. هذا الوطن الذي

نحفظ أناشيده في صدورنا علينا أيضا أن نحفظ حبّه في قلوبنا .. بحفظنا لكل شبر من أشباره .. هذا الوطن الذي سقيناه بالكثير من الآلام والدموع كي ننعم فيه بشيء من الحرية والكرامة ..

ليت تلك الدماء والدموع توقفت عند ذلك الحدّ .. عاد أخي التوأم في سيارة نقل الجنائز بدل السيارة العسكرية التي كانت تُقلّه يومها .. عاد يلبس الأبيض بعد أن مُزّقت بدلته العسكرية إلى أشلاء مضمّخة بدمه الزكيّ .. بعد تعرضّه وزملائه إلى كمين إرهابي أودى بحياته وحياة اثنين من زملائه .. ثلاثتهم في عمر الزهور .. ثلاثتهم عاشوا بؤساء .. أرادوا أن يحيوا حياة كريمة شريفة .. فعاشوا أبطالا وماتوا أبطالا .

أمي لم تنسى الحادثة .. بل لا أحد فينا نسي .. وكيف ننسى أن قطعة من أرواحنا ترقد تحت الثرى .. لو عاش أخي لكان في مثل سني اليوم .. ثلاثون سنة .

أصبحت أمي تخشى عليّ من الغدوة والروحة وتسألني حين القعدة والقومة .. لذلك هي لا تريدني أن أقحم نفسي في ما لا يعنيني كما تقول .. لا أدري ماذا تخاف عليّ بالضبط .. لكنها أدركت بحكمتها أنه إن لم يكن لي أعداء سابقا فسيصبح لي الآن أعداء .. اشتريت لنفسي أعداء بالمجان .. قد يتعرّضون لي .. قد يقتلونني .. هكذا كانت تقول وكنت أجيبها .. أن أخي مات مدافعا عن وطننا .. وها هو الوطن اليوم يناديني لكي أدافع عنه .. ولكل طريقته في الدفاع عن وطنه .. أوليس تبيان الحق والصّدع به دفاع عن الوطن ؟

في الصباح جاءني جماعة من أعيان المدينة .. كان قد أرسلهم سلطان ليتوسّطوا له عندي .. ونظام الجماعة هذا من الأعراف السائدة في مجتمعنا حيث يقوم جماعة من الناس المعروفين بالحكمة والرأي السديد بعد وقوع خلاف أو شجار للتوسط للظالم أو الجاني عند الضحية أو صاحب الحق سعيا لمسامحته وحل الأزمة وديا دون الوصول لأروقة المحاكم .. وكما أن لنظام الجماعة هذا إيجابيات متعددة كإصلاح ذات البين وعقد الكثير من جلسات الصلح والتسامح ..إلا أنّ له سلبيات كثيرة وعليه مآخذ عديدة كتعطيل دور المحكمة والتستر على الكثير من المجرمين بحجة أنه لا يستأهل دخول السجن .

تكلّموا كثيرا فكان من جملة ما قالوه :

- قد جئناك في أمر خير .. فأنت رجل طيب ابن رجل طيب .. إننا قد علمنا بالذي كان بينك وبين سلطان .. وأنتما كما تعلم ابنا مدينة واحدة .. ولن نرضى أن نراكما تقفان موقف العدو من عدوه والشانئ من شانئه في المحكمة .. فها قد جئناك بنية الصلح بعد أن كلّمنا سلطان وعبّر عن أسفه بعد أن أدرك خطأه واستشعر ذنبه .. وقد رجانا أن نتوسط له عندك .. فكل ما نرجوه منك هو أن لا تسمح للحقد أن يحتل قلبك النقي وأن تقدر الموقف حق قدره وأن تعفو عنه وتسامحه .. وكلنا يقين أنك انسان متفهم وذو قلب كبير .. أخبرتهم وبرغم أني لا أحمل له بين جنبي أدنى ذرة حقد على عكس ما ألمحوا له إلا أنّي لا أستطيع مسامحته فالقضية لا تعنيني وحدي بل تعني كل الشعب الذي لا زال يستغفله ويستغله ..

قال أحدهم:

- أفترض أن تُدخله السجن وهو أب لثلاث صبية صغار ؟ فكر جيدا .. لمن سيتركهم وكيف سيكون حالهم ؟ ان لم تسامحه لوجهه أو حتى لوجهنا فعلى الأقل سامحه لوجه أطفاله الذين حتما لن يتحملوا فراق أبيهم وهم في السن التي أحوج ما يكونون فيها إلى والدهم ..

- وهو ؟ .. لِمَ لم يفكر في أولاده قبل أن يفتح مسلخه ذاك ؟

- معك حق في كل ما تقول رد أحدهم .. لكن الصلح خير وقد حملنا لك منه اعتذارا .. كما أنه على أتم الإستعداد لتعويضك كل نفقاتك العلاجية التي تسبب لك فيها .

- انتهى الأمر .. الشكوى قدمتها ولن أستطيع سحبها .. وحقي سآخذه عن طريق المحكمة وعلى يد القانون .. ثم هو لماذا لم يأتي إلي ويقدم لي اعتذاره شخصيا أو على الأقل يأتي معكم ؟

قال أحدهم:

- لقد استحى منك .. فبأي وجه سيقابلك وقد شعر بأنه أخطأ في حقك ؟.

انفرجت شفتي على ضحكة لم أستطع إخفاءها .. وحُق لي أن أبتسم بل وأضحك .. أوَ يستحي أمثاله ؟ أسررتها في نفسي ..

قال أحدهم:

- ما قولك؟ هل هناك امكانية عقد جلسة صلح ؟

- طبعا لا .. بل مستحيل

- يا رجل فكر في الأمر

- فكّرت وانتهى الأمر .. للأسف

- يا أخي ماذا سنقول لك : ما على الرسول إلا البلاغ .. سنبلّغه ما سمعنا منك .. وأنت فكّر جيدا في الموضوع .. لكن لا تنسى أن المسامح كريم

- شكر الله سعيكم على كل حال

- شكرا

عشت بعدها أياما تحت ضغط رهيب جدا بفعل كثرة الإتصالات وكثرة الملّحين على ضرورة مسامحته والمتوسطين له عندي .. لم أعد أفرح كما الأول .. بل أصبحت أشعر بتشتتي الذهني خاصة بعد أن جاءني صديقه المقرّب والذي يشغل منصبا مهما في الدولة .. كان طويل القامة قوي البنية.. جاءني مهددا في صورة التوسط والسعي للحل الودي إذ قال لي يومها:

- عليك أن تسحب دعوتك وأنا أضمن لك كل تعويضك وزيادة

- وإذا لم أفعل .. سألته ؟

- ان لم تفعل فاعلم أنك سبب تشتت أسرته وتشرد أطفاله

- ماذا تقصد؟

- أقصد ما فهمته بالضبط

- إذا فلتعلم أنك مخطأ .. لأني لن أكون سببا في سجنه بل هو سبب نفسه وهو من جنى عليها باقتحام مهنة ماكان عليه أن يجترأ عليها.

قاطعني ببرود:

- لا لا بل أنت ستكون السبب ..

ثم أضاف:

- كم سيكون تعويضك على يد القانون الذي تتكلم عنه .. مليون .. مليونين .. أنا أعرض عليك الآن خمسين مليونا مقابل سحب شكواك .. ستقبضها اللحظة إن شئت ..

بهتّ .. خفق قلبي .. يا إلــهي خمسين مليون مبلغ كبير جدا .. فكرت في سري هنيهة ... هذا المبلغ الضخم مقابل ضرسين .. أغراني فعلا وكيف لمثلي ألا يغتر وأنا في أشد الحاجة إليه صدقا .. ازدردت لعابي الذي سال طمعا بصعوبة ..

همست في سري .. أبدا لن أبيع ضميري ولن أتخلى عن مبادئي وأبدا لن أسمح لهم بشراء ذمتي .

بعد صمت لا أدري أطال أم قصر لسرعة تزاحم الأفكار في رأسي وتماوجها قال :

- إذن ما ردك ؟

لم أقبل .. وفي نفس الوقت لم أرفض .. فقط قلت:

- أتمنى حقا أن أساعدكم لكنني مع الأسف لا أستطيع سحب شكواي لأن مجلس أخلاقيات المهنة هددني بمتابعتي قضائيا إن أنا تنازلت عن القضية .. لأنها الآن لم تعد قضيتي وحدي بل قضية المجتمع كله.. لذلك فليتحمل المسؤولية ... فأنا لا أريد أن أتورط في المشاكل بسببه .

قال مستغربا:

- عجيب .. يتابعونك قضائيا ؟ من قال لك هذا الهراء؟

تذكرت حينها الطبيب مزيان لكني لم أذكر اسمه وقلت:

- هم .. مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان

- لا.. لا .. لا تصدقهم فللمدّعي الحق في سحب شكواه .. هذا هو القانون الداخلي لكل منظمة ولكل نقابة .. أنا منخرط في احدى النقابات وأعرف القانون جيدا .. غدا سأذهب معك إليهم وسترى بنفسك

- لا.. لا .. اترك لي بعض الوقت للتفكير .. وصدقا سأحاول أن أجد حلا .. أعدك .. وإن شاء الله خير .

أنفقت ليلتي تلك كئيبا مسهدا .. لم يعرف النوم طريقه إلى أجفاني ولم أذق فيها سنة الكرى .. أرق وإرهاق .. ضجيج داخلي يستعر في ذهني .. فتتوقد نار تلظّى في فؤادي .. بتّ أتقلب في فراشي .. ولا شيء يتردد في خيالاتي وبين مسامعي سوى :

- اعلم أنك ستكون سبب تشتت أسرته وتشرّد أطفاله ..

ربما كنت صادقا في وعدي له بالمحاولة .. لم أفكر لحظتها بالأموال التي عرضها عليّ .. كنت فقط أفكر في طريقة للخروج من هذه المعضلة التي أقحمت نفسي فيها .. هل صدقت أمي حين سمتها ورطة .. هل صدق صديقه بكوني سأكون سببا في تشتت أسرته .. لم تأخذني رأفة بسلطان ولن تتملكني مهما رق قلبي وحن .. فقط هي شفقة غريبة طفت على جوانح وجداني وحلقت بعيدا لترفرف حول أطفاله الصبية .. يا إلهي .. أأكون حقا سببا في ضياعهم .. إن سُجن كيف سأكمل بقية حياتي في نفس البلدة وأنا سبب دخوله السجن .. كيف سأقابل إخوته غدا .. وبأي وجه ألقى أبناءه .. هل سينسونها ويغفرونها لي أم أن نيران أحقادهم لن تخمد بعد أن تلتهب أكبادهم بفقد والدهم .. في السابق لم يكن لي أعداء.. وها أنا اليوم أشتري لي أعداء وأي أعداء .. أعداء لن تزول ضغائنهم حتى تحين لهم فرصة الثأر

والانتقام فتزول بزوالي .. رغم أني على حق ومطلبي حق ..ولست أفعل إلا حقا .. إلا أن الأمر بدأ يصعب علي فعلا .. لماذا لا تعاقبه الدولة دون أن تقحمني في الموضوع؟ لماذا لا يفعل أطباء المدينة كل هذا الذي أقوم به بدلا عنّي .. لماذا أنا ؟

باتت الأسئلة تتزاحم في رأسي حتى لا تجد لها مخرجا ولا لي منفذا ..

في مساء اليوم التالي دلفت إلى المقهى الأدبي وليس يدور في خلدي إلا سؤال واحد:

كيف سأخرج من هذه الورطة التي أشعر أنني أوقعت نفسي فيها .. فأمي لم تترك مناسبة إلا وذكرتني بوجوب ترك القضية وترك وجع الرأس معها .

جلست مع الأطباء في الطاولة التي اعتادوها وفي الزاوية التي ألفتهم وألفوها .. بعد أن ألقيت التحية واستأذت في جلوسي .. رحبّوا بي .. طلبت شايا لعلي أخفف من حدة التوتر التي لازمتني في المدة الأخيرة .. توترت أكثر وأنا جالس معهم .. لأنني لا أعرف كيف سأبدأ لهم حديثي الذي اعتزمته والذي هو عكس كل أحاديثي السابقة .. أعرف أنهم سينزعجون من حديثي لكن لا بد منه ..

- كيف حالك ؟ بادرني أحدهم

- لست بخير

- أوو .. مابك ؟ هل تشكو من شيء ؟

- لا أدري .. أشعر ببعض الإرهاق جرّاء التفكير الزائد .. أظن أن قضيتنا تسير في طريق معقد ..

صاح أحدهم مستغربا:

- طريق معقّد ؟ لماذا ؟ ما الذي حدث ؟

- الحقيقة أريد أن أتوقف عند هذا الحد .. قد اعتذر لي سلطان .. وأرسل جماعة ليتوسطوا له عندي ..

بدوا كتماثيل من الشمع حين كانوا ينصتون إلي و يحملقون فيّ مشدوهين .. تابعت حديثي :

- لقد فكرت في الأمر .. انتابتني حالة خوف واجتاحتني موجة شفقة .. خوف على نفسي لأني لمست تهديدا في ثنايا حديث صديقه .. وشفقة على أطفاله الصغار .. لا أريد أن أحرمهم من والدهم لسنوات لا أدري أتطول أم تقصر حتى وإن كان هذا الوالد أنموذجا حيا للحقارة والنذالة .. فإنه يبقى والدهم .. وأنا لا أريد أن أفرق بين الأب وأبنائه و ...

قاطعني أحدهم:

- لن تستطيع سحب شكواك لأن مجلس أخلاقيات المهنة سيقاضيك كما أخبرك بذلك مزيان

- نعم أعرف .. ولهذا الأمر جئتكم .. دخلنا القضية سويا .. وأرجو أن أجد فيكم سندا لي للخروج من هذه القضية بأيسر الحلول .. فأمي مصرة على سحبي للقضية وهي تترجاني كل حين ..

قال أحدهم وقد بدت بعض القسوة بين ثنايا كلماته:

- لن نستطيع فعل شيء لك .. دع القضية تسير كما رسمنا لها فهي أولا وقبل كل شيء قضية عامة وليست قضية شخصية .. ولا تخشى شيئا فلن يحدث لك شيء .. نعدك

- حسنا اسمعوني .. أريد حقا أن يلقى سلطان جزاءه وأرجوا صدقا أن يُغلق مسلخه.. لكني الآن ونظرا لتطورات القضية وتقلبات الأحداث أرجو أن تتوقف القضية عند مجلس أخلاقيات المهنة وأن لا تتجاوزها إلى أروقة المحاكم .. فليعاقبوه هم بما شاءوا وليتخذوا ضده إجراءاتهم بغلق عيادته لإنقاذ المجتمع من شره .. أرجوكم .. فلنتصل بمزيان وسأكلمه بنفسي ..

- حسنا لا بأس أخرج الطبيب عبد الله .. واتصل بالطبيب مزيان

- مرحبا دكتور كيف حالك .. ثم قام من مكانه وانزوى بعيدا في مكان قصي لم أستطع متابعة مجريات حديثهما فقط كنت أرى شفاها تتحرك تارة وتسكن تارة أخرى و ابتسامة ترتسم على وجهه بين الفينة والأخرى .. مرت دقائق من حديثهما وانا مشدوه أحدق بالطبيب لا أطرف ولا أحيد عنه بعيني قيد أنملة حتى ناداني بإشارة من يده أن تعال.. تقدمت منه .. أعطاني الهاتف وقال:

- هو معك تفضل كلّمه ..

- السلام عليكم دكتور

- وعليكم السلام .. كيف حالك؟

- الحمد لله

- هل صحيح أنك تريد أن تتنازل عن القضية؟.

قلت بصوت كسيف:

- الحقيقة ..نعم

- لماذا ؟

- أمي تترجاني من جهة وجماعة من أعيان المدينة يضغطون عليّ من جهة .. أشعر بضغط كبير يكاد رأسي ينفجر جراءه .. كل ما أرجوه أن لا تضغطوا علي أنتم أيضا وأن تتفهموا موقفي ..

قهقه من الضحك ثم قال:

- أمتزوج أنت ؟

استغربت سؤاله أجبت على البديهة:

- لا

- تملك سيارة؟.

- أيضا لا

- حسنا .. حسنا .. لك أن تتنازل عن القضية

صدمتني عبارته الأخيرة.. لم أكن أتوقعها البتة.. أيوافق على طلبي بهذه السهولة.. وهو الذي هدّدني في عيادته أني سأُتابع قضائيا من طرف مجلسهم إن أنا فكرت في التراجع عن متابعة سلطان و التنازل عن القضية..

لم أكد أستفيق من صدمتي إلا وهو يبهتني بصدمة أخرى لم أنتظرها يوما من الأيام ولا في أحلامي ..

- ستسامحه .. لكن بشرط واحد

- وهو ؟

- أن يدفع لك مائتا مليون ؟

قلت مصدوما:

- لكم .. أقصد للمجلس كغرامة ؟

- لا .. بل لك .. لن نسمح له حتى نراك متزوجا وتملك سيارة .. هذا المبلغ لك لأنك تستحقه ..

- عفوا .. ولكن هذا مبلغ كبير جدا .. لا أعقد أن بإمكانه توفيره

- لا يهمنا نحن .. كان عليه أن يفكر في ذلك قبل أن يُقحم نفسه في صنعة لا يُحسنها.. أما الآن وقد فات الأوان فإن أراد أن ينجو بنفسه وينفذ من العقاب فعليه دفع المبلغ كاملا دون نقصان .. أنت جئتنا .. ونحن لن ندع حقك يضيع .. هذا تعويض لك لأضرارك المادية والمعنوية .. الجسدية والنفسية .. ماذا لو قتلك لا قدر الله .. أو سبب لك عاهة مستديمة أو مرضا خطيرا لا سمح الله .. هل كان المبلغ سيعيد لك صحتك وحياتك .. نحن نفكر فيك وفي مصلحتك .. الصحة إن ذهبت لن ترجع .. والأضراس إن اقتلعت لا تعود إلا بمعجزة .. نعم لن تعود حتى وإن زرعت في مكانها أضراسا من ذهب فإنها لن تكون كالأضراس الطبيعية ولا حتى نصيفها.. دع الأمر لنا .. ولا تقلق .. اتفقنا

لم أستطع أن أفعل شيئا سوى أن أبتسم ابتسامة لن يراها وأرد:

- اتفقنا

أقنعني كلامه بعض الشيء .. رأيت أنه ربما مصيب فيما نفث من كلمات في رأسي أنهيت المكالمة .. أرجعت الهاتف لصاحبه .. ابتسم وهو يهمس في أذني :

- مائتا مليون ؟

نظرت إليه بإستغراب ودون أن أحرك شفتي .. أزاح عن وجهي علامات الدهشة بقوله:

- مزيان أخبرني بذلك قبلا .. هذا هو تعويضك المستحق

- لكن ألا ترى معي أنه رقم مبالغ فيه بالمقارنة مع ضرسين ولثة مشقوقة .. إن لم نقل أنه خيالي ؟ سألته

- لالا أبدا .. اتبع تعليمات مزيان ولا يهمك الأمر .. فمزيان يعرف مالذي يفعله .. يريد معاقبته بإستخلاص حقك منه .. بتجريده من كل ما جمع من هذه المهنة البراء منه .

سرت في جسدي قشعريرة غريبة .. حين أجبت:

- نعم .. سأفعل .

طوال مدة انتظاري الإستدعاء الثاني من طرف مجلس أخلاقيات المهنة .. لم تغب عن خاطري قصة الملايين المائتين .. وبين توجس وتمني .. تردد وإقبال .. كنت أحلم بالنهاية .. نهاية هذه القصة .. أنتظر بفارغ الصبر نتيجتها .. وبين خاطر يود لو أنها فقط تنتهي حتى ولو لم آخذ فلسا واحدا .. وخاطر آخر يراودني عن نفسي أن من حقي أن أصبح غنيا لأبدأ حياة أخرى غير التي عهدتها .

أتُغير الأموال النفوس والطباع .. بالأمس فقط رفضت خمسين مليون عُرضت علي .. رغم أني لم أمسك هذا المبلغ مجتمعا في حياتي .. في مجتمعنا يمكن للإنسان أن يقتل أخاه الإنسان ويبطش به من أجل عشر هذا المبلغ .. رغم أنه كان في متناولي إلا أني رفضته وبشدة .. وها هو اليوم يُعرض علي ضعف هذا المبلغ أربع مرات .. لماذا رفضت المبلغ الأول وأنكرته .. وأنِستُ بالثاني وارتحت له .. بل وأصبحته أطلبه وأتمناه .. ألأنه أضعاف الأول .. ربما

ليس ذلك السبب.. بل السبب الذي استقر في وجداني وأدركه عقلي أن المبلغ الأول حين عُرض علي كان ينوي شراء ذمتي .. فرفضت لأن مبادئي التي بنيتها على أرض صلبة من ضميري ليست للبيع .. أما الثاني فإني ما أصبحت أطلبه حثيثا حين سيطر على سمعي وبصري وكل حواسي .. إلا لأنه اكتسى بثوب الشرعية والقانون حسبما جاء على لسان الطبيب مزيان وهو الرجل الثاني في مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان.

بعد شهر من الإستدعاء الأول .. شهر من التفكير والقلق وليالي السهاد والأرق .. وصلني الإستدعاء الثاني للمجلس .. اتصل بي صديق سلطان وكان قد أخذ رقمي في لقاءنا الأول .. طلب مني لقاء جديدا .. التقينا .. أخبرني أن سلطان أيضا وصله الإستدعاء .. طلب مني أن أساعدهم بما استطعت في المجلس كما سبق ووعدته ..

أخبرته أني اتصلت بنائب الرئيس وترجّيته أن تتوقف القضية عندهم في المجلس وألا تتجاوزها إلى أروقة المحاكم .. وأكدت له أن هذا ما سأعيد طلبه في المجلس وأمام كل أعضائه .

- وهل وافق على طلبك هذا ؟

- نعم .. على ألا يفتح مسلخه مستقبلا .. وعلى أن يدفع غرامة سيفرضونها عليه .. ولعلمك فالغرامة ربما ستكون كبيرة نوعا ما

- كبيرة ؟ كم ستكون ؟

- مائتا مليون

صاح في استغراب:

- أوه .. مستحيل

- نعم هذا ما قلته أنا حين سمعت بذلك .. لكنها الحقيقة

صمت.. لم يضف شيئا آخر غير قوله .. المهم .. حاول أن تساعده في المجلس حين استجوابك بالتخفيف عنه .. وكما وعدتك سابقا حقك أنا أضمنه لك

- لا بأس لا بأس .. سأفعل ما وعدتك به .

حين مضى إلى سبيله أصبحت منتشيا بعض الشيء .. لأني أعرف أن سلطان الآن سيصله خبر الغرامة وقيمتها من خلال الرسالة التي ضمّنتها لصديقه .

فليستعدّ إذا لما هو آت .. فلم أعد أخشى تطورات القضية كالأيام السابقة .. فالمجلس من ورائي .

وصلت إلى مجلس أخلاقيات المهنة قبل الموعد المحدد بلحظات من ذلك اليوم الذي ضربوه لنا موعدا للقاء والاستجواب .. كان الباب الخارجي مفتوحا .. طرقت عليه طرقات خفيفة كتنبيه واستئذان .. وتقدمت .. دخلت هذه المرّة فقابلني منظر لم أكن أتوقعه .. هو منظر سلطان وهو جالس إلى مكتب السكرتيرة منكسر الهامة مطأطئ الرأس .. نظر إلى حيث الباب حين سمع طرقاتي ووقع أقدامي .. التقت أعيننا ..

التقت أخيرا عين الشانئ بعيني شانئه .. كانت نظراته منكسرة ذليلة تنبئ عن ضعف .. وكانت نظراتي حادة صارمة كاد أن يستحيل معها إلى رماد .. أشحت بوجهي عنه بعد أن أعاد رأسه إلى حيث كان ودسّه بين رجليه أو كاد .. بدا لي أنه قد انزاح عنه قناع العظمة .. ذلك القناع الذي طالما لبسه وتزيّ به أعواما طويلة زورا وبهتانا .. خطوت إلى الأمام خطوات ثابتة واثقة .. سلّمت على السكرتيرة . .

انتبهت إلى وجود شخص رابع معنا في المكتب لم أنتبه إليه أول الأمر .. كان صبيا صغيرا لم يتجاوز الخامسة من العمر .. كان طفلا ذا ملامح ملائكية بريئة لولا الجرح الغائر في وجهه والذي امتد من شفته العليا إلى أعلى جبهته مرورا بأنفه فشوه وجهه .. وكانت قشرة الجرح والزرقة الممتدة أسفل عينه اليسرى تدلل على حداثة جرحه .. تبيّن فيما بعد أنه ابن سلطان وبالضبط ابنه الأصغر ..

طلبت مني السكرتيرة الجلوس .. لكني اعتذرت .. وفضلت الانتظار خارجا .. فبما أن أعضاء المجلس لم يصلوا بعد .. فسأستغل هذه اللحظات في تدخين سيجارة في الخارج في انتظار وصولهم ..

في الخارج انشغلت بسحب وشفط السيجارة بنهم وشغف كأني لم أدخن قبل اليوم .. لم تكن السيجارة السبب الوحيد لمغادرتي المكتب .. بل لأفرّ من وجه سلطان القبيح ونفسه الدنيئة .. اكتشفت حقا أنني أصبحت لا أطيق رؤيته ولا لقياه ..

بعد لحظات لم تكن بالطويلة بدأ أعضاء المجلس بالتوافد .. رئيس المجلس والعضو الذي تحدثت معه سابقا والذي أحب أن أصفه بالأصلع وكان معهم ثلاثة أعضاء جدد أو بالأحرى هم أعضاء قدماء ربما .. لكنهم تغيبوا في اللقاء السابق .. كانوا سيدتان ورجل واحد .. أصبح مجموعهم الآن خمسة .. سبقوني بالدخول .. تباطأت قليلا ..

تنفست جيدا ثم تبعتهم .. صعدت .. وجدت الأصلع يكلم سلطان .. نظر إلي فور ولوجي .. وقبل أن أسلم بادرني بقوله:

- جاؤوك ؟

في استغراب أجبت بسؤال آخر:

- من ؟ فلم يكن السؤال مفهوما ومحددا

أصرّ على تكرار نفس الصيغة وهو يشير بإصبعه إلى سلطان:

- هل جاؤوك ؟

ومع إصراره خمنت أنه يقصد الجماعة الذين أرسلهم سلطان للتوسط له .. أومأت برأسي وقلت : نعم

- حسنا .. حسنا .. انتظر خارجا حتى نستدعيك

خرجت إلى البهو .. بقيت واقفا أنتظر حوالي النصف ساعة .. فلم يكن هنالك من كراس في البهو .. انفتح الباب أخيرا .. خرج سلطان وأغلق الباب وراءه .. ما إن رأيته حتى أشحت بوجهي عنه .. تقدم نحوي وهو ممسك بيد ابنه.. حياني .. ثم مدّ يده وصافحني.. نظرت إلى عينيه المنكسرتين وصافحته.. قال بصوت خفيض منكسر وقد امتلأت مقلتيه دمعا وسحنته خوفا :

- لم فعلت بي كل هذا يا ماجد .. لم ؟

- أنا ؟ لا أنت من أوصلت نفسك إلى هنا

- أترضى أن تدخلني السجن .. انظر هذا ابني .. المسكين سقط من الدرج .. انظر إلى وجهه كيف استحال .. ألا تشفق عليه وعلى أخويه .. هؤلاء صغاري وليس لهم أحد سواي ..

نظرت إلى الولد.. وجدته واجما ينظر إليّ بعينين براقتين تتلألآن تلألأ النجوم في السماء وتفيضان طهارة ونقاء أو هكذا بدا لي .. حاول سلطان استعطافي بكلماته الخفيضة المتهدجة وعينيه المنكسرتين .. رق قلبي .. كأنما أشفقت على حاله ومآله .. قلت:

- للأسف الآن فات الأوان .. لو جئتني قبلا .. وكلمتني واعتذرت مني لما وصل الحال بنا إلى ما وصل الآن .. فقط هو اعتذار . ألم يقولوا دية الكرام الاعتذار .

قال بعد أن خفض رأسه:

- استحييت منك .. لم أجرؤ على مقابلتك

أشفقت عليه رغم أني كنت أعرف أنه يمثل دور المسكين البائس الذي لا حيلة معه .. إذ كيف يعقل أن يكون هذا الشخص الذي يكلمني الآن هو نفسه ذاك الذي هدّدني في المقهى .. وكيف يكون هذا الذليل المنكسر أمامي هو نفسه ذاك الذي يبصق علي كلما لمح طيفا من ظلي .. ذلك الذي تعالى علي وتبجح يوم أخبرته بأنه سبب لي تعفنا في اللثة كاد يودي بحياتي .. لا يمكن أن يكون هو هو .. إلا إن كان يعاني من انفصام في الشخصية حتى غدا جسده مسكنا لروحين متناقضتين وشخصيتين مختلفتين ..

سألته : وما المطلوب مني الآن ؟

- قل لهم أنني لست من عالجك

ابتسمت في مرارة وقلت:

- أأقول لهم إنني كنت أكذب .. تريد أن يتابعوني بتهمة الوشاية الكاذبة .. لا لن أفعل ذلك .. لن أخرجك من ورطة لأدخل نفسي في ورطة أكبر

- لا .. لا تقل لهم أنك تكذب .. بل قل إنك على خلاف معي وكنت غاضبا مني فأردت أن تنتقم مني فادّعيت عليّ ما ادّعيت .

تحولت ابتسامتي إلى ضحكة جلجلت المكان..

- أأنت جاد ؟ هذه أخطر من الأولى .. لن أغير أقوالي لذا لا تتعب نفسك في محاولتك إقناعي ..

- إذا لن تساعدني كما سبق ووعدت صديقي ..

- بلى سأساعدك .. لكن على طريقتي وبأسلوبي أنا

- كيف ؟

- سأطلب من أعضاء المجلس أن تتوقف القضية عند هذا الحدّ .. وأن لا يمرّروها للمحكمة

- لن يقبلوا .. فقد حاولت عن طريق وساطاتي التقرب منهم في الأيام السابقة .. كل الأعضاء أبدوا نية في مساعدتي إلا عضو واحد بقي مصرا على متابعتي .. ولن يهنأ له بال حتى يراني مسجونا ..

- من هو ؟

- اسمه مزيان ..

نزل اسمه على قلبي بردا وسلاما .. فرحت في داخلي .. ارتحت .. تأكدت أن مزيان محل ثقة فعلا ورجل شريف حقا .. لن يُشترى ولو بالذهب والفضة.

انفتح الباب مجدّدا بعد أن تشاور الأعضاء بينهم وبعد أن حلّلوا ما جاء على لسان سلطان من نفي للتهمة المنسوبة إليه .. خرج الأصلع .. ارتسمت على وجهه علائم الدهشة لمّا رآني أقف وسلطان جنبا إلى جنب ونتحدث كأننا أصدقاء .. استدعاني للدخول .. دخلت .. أغلق الباب خلفي وقال ممازحا:

- إذا تتحدثون مع بعض ؟

أجبته ساخرا:

- نعم ..بيننا قضية لا بد أن نسوويها لكننا لا نحقد على بعضنا البعض ..

ابتسم وقال:

- تفضل اجلس

أخذت مقعدا مقابلا لهم في تلك الطاولة المستديرة.. كان الرئيس يجلس على رأس الطاولة من جهة اليمين والأصلع على رأس الطاولة جهة الشمال.. وكان قبالتي الأعضاء الثلاثة الباقون .. عضو جديد لم ألتقه في المرة السابقة.. وسيدتان.. كان كل واحد منهم يحمل قلما ويضع بين يديه ورقتين ورقة بيضاء لتدوين المهم من كلامنا .. والأخرى كانت مكتوبة .. خمنت أنها نسخ عن شكواي ..

تكلّم رئيس المجلس فقال:

- سنسألك سؤالا وأرجوا أن تكون إجابتك واضحة ومحدّدة.. لكن قبل ذلك أودّ أن أشكرك على ثقتك فينا واختيارك اللجوء إلينا والإستعانة بنا لترد حقك المسلوب .. والآن نرجع إلى السؤال : من تولى معالجة ضرسك ؟

قلت بدون تردد:

- هو .. وأشرت إلى الباب .. سلطان

وهنا نطقت إحدى تلك السيدتان متسائلة ومتثبتة:

- هل حمل الثاقب وثقب ضرسك ؟

- نعم

- أمتأكد أنت ؟.. لأنه نفى هذه التهمة عن نفسه وصرح أنه يعمل مرمّم أسنان فقط .. لا طبيب أسنان .. كما حلف بأغلظ الأيمان أنه لم يحمل الثاقب يوما ..

- نعم هو من عالجني وثقب ضرسي وتسبب في ما رأيتموه بأم أعينكم.

ومع إصرار نظراتهم الشاكة التي تخترق كياني أردفت وقد بدأ الدم يغلي في عروقي وماذا سأستفيد يعني لو اتهمت شخصا بريئا .. كما لا تنسوا بطاقته التي دُون عليها اسمه مرفقا بكلمة دكتور ..

صاح أكثر من واحد وبصوت واحد :

- وأين هذه البطاقة الأصلية ؟ هاتها

قلت بإستغراب:

- هي عند مزيان .. ألم يخبركم؟..

تبادلوا نظرات خاطفة مع بعضهم ثم قال العضو الجديد:

- حسنا إذا .. أعد سرد القصة علينا

بدأت أعيد سرد مجريات قصتي مع سلطان من يوم دخلت عنده إلى أن كان ما كان.. وكل واحد منهم كان يحدق في الورقة التي انطرحت أمامه على الطاولة .. لعلهم يظفرون بتناقض في ثنايا سردي وحبكتي ..

تكلم رئيس المجلس فقال :

- هذا ما كنا نريد معرفته وها قد عرفناه .. وبما أننا سمعنا الطرفين اليوم .. فستسمع الحكم في الجلسة القادمة .. وقبل أن تنصرف نريد أن نعرف ما هو طلبك ؟

تنحنحت وقلت:

- أولا يجب أن تعرفوا أني ما لجأت إليكم إلا لسببين.. الأول : أنه لم يعترف بخطئه حين واجهته به .. بل وذهب في غروره كل مذهب.. والثاني: أني لما

علمت أنه طبيب مزيف أدركت أنها لم تعد قضيتي وحدي بل أصبحت قضية المجتمع كله .. ولا بد من وضع حد له.

التفتت السيدة التي تقابلني إلى صاحبتها وصاحت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة إعجاب:

- عظيم .. مبدؤك عظيم فعلا .. نحييك عليه

زادت ثقتي في نفسي بعد كلماتها تلك فأردفت:

- لكني الآن ونظرا لإعترافه لي بخطئه واستعطافه لي .. ومن أجل عيون أولاده .. أرجوا أن لا تمرّروا القضية إلى المحكمة .. مرّروها ان شئتم إلى مديرية الصحة .. أغلقوا عيادته .. غرّموه .. افعلوا ما ترونه مناسبا لإيقاف شره .. لكن لا أريده أن يسجن فأكون سببا في سجنه في نظر أهله وعشيرته..

قاطعني الأصلع بقوله:

- نعم هذه إجراءاتنا نحن .. وسنتخذ معه اللازم .. والآن وقد سمعنا طلبك فتستطيع المغادرة ..

خرجت وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة .. امتزجت فيها كل مشاعر الثقة والرضى والشعور بالنصر ..

لم أذكر شيئا عن مطالبي المادية لأني كنت أعلم أن مزيان سيتولى بنفسه طلب التعويض لي كما أُحب وأشتهي وزيادة .

زارتني الجماعة المكلفة بالتوسط لسلطان عندي في بيتي من جديد .. حدثتهم بمستجدات لقائي مع المجلس .. كانوا أكثر اصرارا وعزما هذه المرة على فض النزاع القائم بيننا دون العودة للمجلس مرة أخرى .. فأنا على كل

حال قد تنازلت عن كثير من مطالبي .. فبعد أن كنت أعتبرها قضية وطنية .. قلصتها في ذهني فأصبحت لا أراها إلا قضية شخصية بحتة .. وبعد أن كنت أروم له السجن أصبحت الآن أطلب فقط معاقبته معاقبة ردعية من المجلس وفقط كإجراء روتيني.. فلم لا أتنازل تماما وآخذ تعويضي منه مباشرة دون العودة إلى المجلس مرة ثالثة وربما رابعة ..عُرضت عليّ الخمسين مليون مرة أخرى من الجماعة .. فكرت قليلا..

- كيف ستتم إجراءات التنازل ؟ سألت كبيرهم في حزم

- سيقوم محام بعمل كل الاجراءات اللازمة .. أنت ما عليك إلا الإمضاء على التنازل .. وهو سيتكفل بتقديمه للمجلس ومتابعة القضية حتى نهايتها .. أما مالُك فستقبضه من يدنا نحن قبل ان تُوقّع على التنازل .. هكذا لنضمن حقوق كلا الطرفين .. هو يأخذ التنازل وأنت تأخذ مالك ونحن الشهود ..

احترت .. ترددت .. طلبت منهم وقتا للتفكير ..

- لا بأس .. لكن لا تطل علينا .. رد أحدهم .. فالوقت يداهمنا ويجب تعجيل إنهاء هذه القضية وهذا الخلاف بينكما .

في المقهى الأدبي .. استشرت الأطباء .. وهم بدورهم استشاروا مزيان .. كلّمه أحدهم .. ثم أخبرني بعد أن أنهى مكالمته أن مزيان يرغب بلقائي في عيادته ليكلمني شخصيا وبالتفصيل ..

- متى ؟ سألته بحماس

- غدا إن شئت .. فهو يبدو مستعجلا

أومأت برأسي موافقا وأنا أردد في سري .. نعم أنا أيضا مستعجل ..

دعتني الممرضة للدخول فور إبلاغها الطبيب مزيان بوصولي استقبلني وابتسامة كبيرة على محياه

- كيف حالك ؟

- الحمد لله .. شكرا على السؤال

- وكيف حال أضراسك ولثتك الآن ؟

- لم تشفى تماما .. لكنها أفضل من السابق

- جيد..

ثم صمت برهة والإبتسامة لا تزال مرتسمة على وجهه وهو يحدق بي .. للحظة أدركت أنني أنا من يجب أن يبدأ حديثه فقطعت جدار الصمت بقولي :

- علمت أنك تريد رؤيتي ..

- نعم .. نعم .. صحيح .. أخبرني ماذا اقترح عليك سلطان

- قد عرضوا علي مبلغ خمسين مليون مقابل أن أوقع على التنازل عند المحامي ..

- وماذا تعتزم أن تفعل ؟

- الحق أني محتار ولذلك طلبت استشارتك .. وها أنا ذا أمامك لأسمع منك مباشرة

- حسنا إذا .. إياك أن تُخدع وتوقع على التنازل كما طلبوا منك .. يريدون أن يوقعوا بك ثم يحاكموك طلبا لرد الاعتبار .. كما أنك تستحق أضعاف هذا المبلغ الذي عرضوه عليك .. وبما أنك لجأت إلينا فإننا نقف بجانبك وندعمك للآخر .. وأنا شخصيا أدعمك ليس لشخصك وليس من أجل سواد

عيون أصدقاءك الأطباء .. ولكن فقط لأنك مظلوم .. فأنما ماض معك حتى ولو على حساب رقبتي ..

قال جملته الأخيرة تلك وهو يمرّر كفه الأيمن على رقبته جيئة وذهابا ..

أفرحتني كلماته وزرعت في نفسي ثقة كانت قد ضاعت مني في الأيام الأخيرة .. خرجت كلماتي من القلب..

- شكرا جزيلا دكتور .. لكن ما الحل الآن ؟

- الحل أننا سنُتم كل الإجراءات عندنا .. بما أنك لا ترضى له السجن مع أني أرى أنه يستحقه .. لكن هذه رغبتك وسنحترمها .. لكن عليّ أولا أن أتصل به وأقول أنك لا تريد مسامحته .. إلا إن دفعت المبلغ الذي سنحدده نحن .. وهو بدوره سيقبل بالتأكيد.. لأنه حتما لن يرغب في أن يُغيّب في عالم السجن ..

- اتفقنا ؟

- إذا لن أقبل بإمضاء التنازل خارجا؟

- طبعا لا تقبل

- حسنا إذا .. شكرا على وقتك دكتور

- لا شكر على واجب .. هذا واجبي وإذا احتجت لأي شيء فمرحبا بك في أي وقت

خرجت من عنده .. وإحساس غريب بداخلي .. إحساس كأنه الإحباط .. ربما لأنه لم يقل شيئا جديدا .. فكل ما قاله سمعته من قبل .. أو ربما لأنني توقعت منه كلاما آخر غير الذي قاله .. لا أدري .. ساورني ارتياب وشك هذه المرّة .. حتى عندما تركت البطاقة لم يصحبني شعور هذه المرة .

لم تمض إلا ثلاثة أيام على لقائي بمزيان .. حتى اتصلت بي السكرتيرة وأعلمتني بالموعد الجديد للقائي مع المجلس .. قالت أنها ستكون الجلسة الأخيرة ..

كنت قد حضّرت كل شيء لهذه الجلسة الأخيرة والتاريخية بالنسبة لي .. هذه الجلسة التي ستغير حياتي ربما .. هذه الجلسة التي سيُعلن فيها انتصار الحق وانمحاق الباطل .. هذه الجلسة المشتاقة لرؤية انكسار الغرور والتعالي ..

اتصلت بدوري بالجماعة وأغلقت معهم ملف الصلح نهائيا .. كل شيء سيتم في المجلس .. اتصل الطبيب عبد الله بمزيان بطلب مني وسأله إن كان سيحضر هذه الجلسة الحاسمة عكس الجلسات الماضية .. التي عرفت غيابه .. طمأنه بحضور هذه المرة وأن كل شيء سيسير كما رسمنا له وكما اتفقنا ..

حضوره هذه المرة هام جدا وسيكون حافزا لي .. فبحضوره تحضر شجاعتي أكثر وتزداد ثقتي بنفسي .. خاصة بعد أن أصبحت أراه مثلي الأعلى في حرصه على تطبيق القانون وإحياء المبادئ الخلّاقة والقيم .. فقد أصبح بالنسبة لي ملهما وسندا قويا فكأنه عصاي التي أتوكأ عليها لأبصر طريقي قبل أن أحثّ خطوي ..

فإن حضر وقفت على رجلي بثقة وإن غاب خشيت على نفسي السقوط .. أوليست كل القرارات تلقيتها منه شفهيا وهو الذي أنتظر أن ينطق بها أما أعضاء المجلس .

في تلك الليلة التي تسبق الموعد المحدد .. عصاني النوم فلم يعرف طريقه إلى أجفاني .. موجة من المشاعر المختلطة .. توجس وخيفة لم أعرفها في نفسي قبلا .. انتقل الخوف الداخلي إلى أطرافي الخارجية فارتعش الجسد كاملا .. ارتعدت فرائسي .. حدسي لم يطمئنّي .. لماذا أشعر بالخوف اليوم بالذات وأنا على بعد خطوة من إتمام ما بدأته .. ألأن الكثير من تفاصيل خطتي لم تتم .. أم لأن أجزاء كبيرة من خطتي تغيّرت وتبدّلت .. سألت نفسي هل كل شيء يسير على ما يرام .. كيف سأقبض هذا المبلغ الضخم .. هل سيحضره معه سلطان إلى المجلس وأستلمه منه مباشرة يدا بيد .. أم سأستلمها عن طريق محضر قضائي أم عن طريق حوالة .. حاولت أن أطرد هذه الأسئلة من رأسي وأن أدع معرفة جوابها للغد القريب .. لكن هواجس أخرى حلّت محلّها .. شعرت بتغير في مبادئي التي سرت عليها بادئ الرأي .. هل بعت أخلاقي ومبادئي للحصول على امتيازات شخصية .. لا لا كل شيء على ما يرام .. طمأنت نفسي أن كل شيء بخير .. كل شيء يسير في الطريق الذي كان يجب أن يسير عليه أول الأمر .. أحقق مصلحة عامة بغلق مسلخه وفي نفس الوقت أحقق مصلحتي الشخصية بحصولي على المال .. وهكذا أضرب عصفورين بحجر واحد ولا تناقض في هذا بين مصلحتي ومصلحة مجتمعي .. هكذا أقنعت نفسي .

غفوت على هذه التساؤلات والخيالات والتبريرات .. حين تسللت أولى خيوط أشعة الشمس النحاسية لذلك اليوم المعلوم من شقوق النافذة لترتسم على صفحة وجهي السمراء مأذنة ببداية يوم جديد .. أفقت .. فتحت عيني .. وفي نفسي ما كان فيها بالأمس من خيفة وتوجس فكأني ما غفوت ولا نمت بعد أن أخذت حظي من حمام دافئ وقهوة سوداء .. انطلقت في محاولة مسابقة الزمن .. يبدو الوقت بطيئا .. أريده أن يسرع

ليعجل لقائي بأعضاء المجلس .. أريد حكما فصلا في قضيتي التي طال البتّ فيها .. لا أريد أن أقضي وقتا أطول في ترقبي وخوفي .

ركبت سيارة إلى مقر مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان .. وصلت قبل الموعد المحدّد كما المعتاد .. بعد لحظات تجمّع كل أعضاء المجلس هذه المرّة بما فيهم مزيان وعضوين جديدين لم أرهما قبلا .. امرأة بدينة عبثية المظهر تشمئز لمرآها العين للوهلة الاولى .. لا تبدو طبيبة أو لنقل أن مظهرها الغريب ذاك لا يدل على ذلك .. أما العضو الجديد الآخر فكان رجلا طويل القامة يربو عمره عن الأربعين .. يرتدي بدلة رسمية سوداء بربطة عنق أنيقة .

بدأت الجلسة سريعا .. اندهشت في البداية .. إذ كيف تبدأ الجلسة والمعني بالأمر لم يحضر .. بل ولا أحد سأل عنه .. لم يحضر سلطان الجلسة .. لكن لا أحد ذكر اسمه أو تساءل عن سبب غيابه أو اندهش اندهاشي .. لكن لا يهم.. ربما لم يستدعوه أصلا .. المهم أن مزيان هنا .. وهو وجميع الأعضاء يعرفون مالذي يفعلونه ..

بدأ رئيس المجلس الحديث وكل كلامه في صالحي .. ثم أنهاه مزيان متوعدا بتسليط أقصى العقوبات على سلطان وأمثاله .. كنت صامتا لم أنبس ببنت شفة .. فلم يسألني أحد منهم سؤالا .. ولا طلب مني أحد منهم كلاما .. بعد أن أنهى مزيان كلامه قدّم لي ورقة مكتوبة باللغة الفرنسية وقلما .. وطلب مني توقيعها .. نظرت إليه باستغراب .. فهم مغزاي .. أومأ لي برأسه وأشار إلى الورقة المنبسطة أمامي دلالة على أن أوقع على الورقة وقال :

- هذا تسجيل للحضور .. وقع ولا تخف ..

وكل شيء كما اتفقنا سابقا .. لم يذكر المبلغ الذي سآخذه كتعويض .. لكني أومأت برأسي موافقا دون أن أنطق كأني أدلّل على أني أثق بك وأني على علم بقيمة المبلغ دون ذكره مجددا .. أشار مزيان إلى موضع محدد في الورقة وقال:

- وقّع هنا من فضلك ..

لم أكن أتقن اللغة الفرنسية .. لكني في نفس الوقت لم أكلّف نفسي عناء سؤالهم أن يترجموا لي ما جاء فيها حرفيا .. فأنا أثق في مزيان ثقتي بنفسي .. لم أتردد .. وقّعت .. أرجعت له الورقة والقلم .. مرّرها على كل الأعضاء فوقعوا ماعدا المرأة البدينة صاحبة الهندام الغريب .. تساءلت بيني وبين نفسي عن سر تواجدها بيننا إن لم تكن طبيبة ولا عضوا من أعضاء المجلس .. ولا سمع أحد صوتها خلال تواجدها الجثماني بيننا في الجلسة .. اللهم إلا بعض السعال بين الفينة والفينة تتخللها ابتسامات ساذجة توزعها ذات اليمين وذات الشمال بسبب وبدونه ..

غابت عني هذه التساؤلات حين حلّ محلها السؤال الأهم كيف سأحصل على حقي؟

أنهوا الجلسة سريعا .. تململت في مكاني قليلا ثم تشجعت وسألت:

- هل ستغلق عيادة سلطان ؟

- طبعا ستغلق .. أجاب العضو الجديد صاحب البدلة الأنيقة

- وماذا عن تعويضي متى وكيف سآخذه ؟

تبادلوا نظرات حائرة مستفهمة بينهم .. ثم بادر مزيان بقوله:

- سنتصل بك .. لا تقلق

شكرتهم ثم خرجت.

في ذلك المساء أحسست بضيق في صدري .. قلبي يحدثني أني خُدعت .. هل يصدق حدسي الآن وهو الذي لم يكذبني في السابق قط .. هل كان شعور الخوف من المجهول الذي أنتظره والذي سبق الجلسة في محله .. لم يبرحني التوتر .. لم أستطع أن أصبر أكثر من ذلك .. أنظر إلى الساعة باستمرار .. كأن الزمن واقف لا يتحرك .. هرولت إلى المقهى الأدبي لا ألوي على شيء سوى رؤية أصدقائي الأطباء .. أريد شخصا أحدثه ويحدثني .. أريد من يطمئنني .. أريد من يجزم لي أن ظنوني خبيثة وأن حدسي كاذب .. أريد من يؤكد لي بأن كل ما فعلته لحد اللحظة هو الصواب الذي لا صواب غيره .. أرجوكم أخبروني .. تحطم كل شيء فور جلوسي إليهم وبدء الحديث معهم .. أحسست بتقلص في شراييني وضيق في نفسي .. ازدادت ضربات قلبي أكثر فأكثر وكلمات أحد الأطباء تخترق صماغ أذنيّ لتخترق بدورها كل الأوعية الشعورية فتشلها أنت أمضيت اليوم على التنازل..

- لقد تنازلت على كل شيء.. شكواك.. تعويضك..

لم أصدّق ما أسمع .. احمر وجهي.. انتفخت أوداجي .. ازدردت ريقي بصعوبة .. تسمرت في مكاني .. ساد صمت جنائزي لم أسمع فيه غير دقات قلبي المنقبض .. قطعت الصمت السائد حين صِحت بصعوبة وبصوت متهدج مخنوق:

- ماذا ؟

- نعم .. أردف الطبيب عبد الله .. ما سمعته بالضبط .. اتصلت قبل قليل بمزيان .. هو أخبرني كل شيء .. أخبرني أنك أمضيت على التنازل دون إكراه .. أنت تنازلت على كل شيء .. كل شيء يا ماجد ..

صرخت .. يا إلهي الورقة .. نعم الورقة .. لكني لم أكن أعلم ما تحويه بين ثنايا سطورها السوداء .. فقد كانت مكتوبة باللغة الفرنسية وأنا لا أفهمها .. مزيان أخبرني أنها مجرد توقيع لتأكيد الحضور ..

قال أحدهم بلغة تشبه لغة العتاب:

- أتُوقع على شيء لا تعلم ما هو ؟ هل أنت ساذج لهذه الدرجة .. من يفعل شيئا كهذا في زمن كهذا ؟

قلت كأني استدرّ شفقة وعونا منهم:

- لكني وثقت بمزيان بعد أن وثقت بكم .. فأنتم من دلّني عليه.

قاطعني أحدهم:

- لا أرجوك .. لا تحملنا نتيجة فعلتك .. هذا خطؤك وحدك ولا أحد يتحمل وزر خطئك ..

أضاف بلغة صارمة:

- على كل القضية انتهت هنا ..

وأشاح بوجهه إلى الصعيد الآخر ساد صمت طويل فهمت من خلاله أنه يطلب مني مغادرتهم .. فهمت أني صرت منبوذا من طاولتهم هذه منذ اللحظة .. إذا خسرت كل شيء .. قضيتي .. مبادئي .. تعويضي .. حتى الأطباء الذين كانوا بالأمس في صفي تخلوا عني .. هل هم حقا من تخلى عني ؟ أم أني أنا من تخليت عنهم بسذاجتي المفرطة .. أصبحت إذا وحيدا

كما بدأت أول مرة .. عدت إلى نقطة الصفر كما ابتدأت .. ضاع كل شيء في توقيع ورقة مجهولة مكتوبة بلغة ليست لغتي .. ضاع كل شيء بسبب غبائي وثقتي الزائدة بمزيان .. خرجت من المقهى منكسرا تتردد بين مسامعي الكلمات الأخيرة التي سمعتها: هل أنت ساذج .. هل أنت ساذج .. لأرد عليها بعفوية:

- لا .. لست ساذجا .. أنا غبي .. نعم أنا غبي .. آه يا إلهي أنزل عليّ سكينتك على قلبي يا الله.

يا للخسارة لقد وضعت ثقتي في شخص لا يستحقها .. أهذا هو مزيان الذي زكّوه وقالوا عنه أنه رجل نزيه .. أهذا هو مزيان الذي قال مفاخرا بنفسه أنه سيدافع عن الحق حتى وإن كان على حساب رقبته .. حزّ في نفسي كثيرا أن يطعنني من الخلف نفس الشخص الذي أعطيته ظهري كي يحميه .. أن يطعنني في أول فرصة سنحت له .. عندما يخونك من وثقت به يتعاظم الخطب وتصير الخيانة خيانتين ..

خيانة الثقة وخيانة الضمير .. كيف طاوعه ضميره .. أوليست ثقتي به خنجر على رقبته .. كيف يا ترى طاوعه قلبه فجرّ سكين الثقة على عنقه الطري دون أن يطرف له جفن .. هل تجري في عروقه دماء كسائر الدماء .. أم أن دمه غير الدم ما دام ضميره غير الضمير .. أي سماء تقلّه وأي أرض تظلّه وقد قدّم ضميره قربانا لأطماعه وملذاته .. ألم يقل أنه لن يتركه وشأنه ولن يشفي غليله منه حتى يراني قد أخذت كل حقي منه .. استغلّ فقري فأدخل الطمع إلى قلبي من أوسع أبوابه وجعلني أعيش خيالات من السراب .. كل كلامه الذي قاله وكل الشعارات التي تغنى بها كانت تمثيلا في تمثيل .. وسلطان ألم يقل بعظمة لسانه أن الوحيد الذي لم يستطع شراء

ذمته هو مزيان .. هل تعمّد ذكر اسمه أمامي .. هل حاول تمويهي عن الحقيقة التي عُمّيت عني .. إن صدق حدسي فقد كانا متفقين منذ البداية.. أعدت حساباتي منذ البداية .. استرجعتها كلها بكل ما فيها من وجع النفس وكمد الفؤاد .. تذكرت كل ما مررت به .. مرّ شريط الذكريات سريعا أمام عيني .. لم أنم .. جافاني النوم وجافيته .. أردت حل الأحجية .. رجّحت ليلتها أن مزيان قد تلقى رشوة من سلطان .. مزيان كان يعلم أن سلطان عرض علي خمسين مليون .. ألحّ علي أن أرفض عرضه وأنه سيتكفل بالإجراءات .. تذكرت حين قال في لقائي الأخير به في عيادته أنه سيتصل بسلطان ليساومه ويخبره أني أطلب مائتا مليون ..

إذا تعمّد إغرائي بالمبلغ الضخم ثم عرض على سلطان مبلغا أقل مقابل أن يخرجه من الورطة التي حلّ فيها كخروج الشعرة من العجين .. إذا صدق حدسي يومها حين خرجت من عنده شاكا مرتابا .. تذكرت البطاقة .. تلك البطاقة الأصلية لمواعيد سلطان العلاجية .. البطاقة كانت الدليل الوحيد والأثر الأوحد الذي تركه سلطان وراء جريمته .. ربما أخطأ حين أعطانيها .. وربما أخطأت بدوري حين لم أحافظ على دليلي الوحيد في قضيتي هذه حين تركتها عند مزيان وعدت بخفي حنين .. ألحّ علي يومها في أن أثق به وأتركها عنده .. هل يعقل أنه كان ينوي أن يغدر بي منذ الوهلة الأولى .. هل يعقل أنني أنا من أعطيته مفتاح ثقتي وسهلت له فتح الأبواب لخيانتي .. الكثير من الألغاز بقيت عالقة في ذهني .. استصعب عقلي حلّها .. لا بد أن أزور مزيان غدا في عيادته لأسمع منه مباشرة وأفهم مالذي جرى .

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحا حين دلفت إلى عيادة مزيان .. طلبت من الممرضة أن تستأذنه في دخولي عليه كما جرت العادة .. لم أفاجأ كثيرا حينما عادت تقول:

- أنه لا يريد رؤيتي.. فعلى كل توقعت هذا منه .. لم أتمالك نفسي .. إذ لم أعد أنتظر إذنا .. أو هكذا أحسست .. اقتحمت عليه قاعته العلاجية.

انتفض واقفا بعد أن كان يفحص مريضا كان بين يديه كأن عقربا لدغته .. صرخ:

- من أذن لك بالدخول ؟

أدركت ان زمن الحمل الوديع الذي كان يستقبلي بالإبتسامات قد ولّى إلى غير رجعة بعد أن قضى مآربه الخبيثة وقد حلّت محلّه الآن صورته الحقيقية .. صورة الوحش المختبئ في أسمال البشر .. سقط من عيني سقوط عبراتي في الليلة الفارطة .. لم تعد لي رغبة في الحديث إليه أنا الآخر .. عاجلته بقولي:

- جئت لآخذ بطاقتي التي تركتها عندك أمانة ..

قال هازئا:

- بطاقة ؟ لم تعد هناك بطاقة .. لقد أحرقتها بعد أن انتهت القضية ..

كان المريض والممرضة التي تبعتني وبقيت واقفة أمام الباب يحملقان فيّ ولا يفهمان شيئا مما يحصل قلت بإصرار وبحزم أكبر:

- قلت لك أريد بطاقتي والآن

صرخ مجددا: ألا تفهم .. قلت لك لم تعد هناك بطاقة .. ثم أضاف مهددا : وإن لم تخرج حالا من عيادتي اتصلت بالشرطة .. وإياك أن تفكر في العودة

إلي مجددا إياك.. لم ينتظر طويلا حمل سماعة الهاتف وحدجني بنظرة غريبة .. منتظرا ردة فعلي قبل أن يبدأ في تشكيل رقم الشرطة .. أدركت حينها أني انهزمت مجددا ..

ابتسمت في مرارة .. وأنا أبكي في داخلي .. انقلبت على عقبي .. أعطيته ظهري مجددا ..هذا الظهر الذي ضربه بلا هوادة وبدون رحمة .. خرجت بنفسية منهارة وبكرامة مهدورة وبقضية خاسرة .. يا إله السموات على من سأحقد الآن .. على سلطان أم على الطبيب الشرعي أم على وكيل الجمهورية أم على مزيان أم على كل أعضاء المجلس .. نعم أعضاء المجلس لا أدري حقيقة إن كانوا متواطئين مع مزيان أم لا لكن لو لم يكن لهم من جريمة غير سكوتهم لكفاهم ذلك شرا وكان فاحشة كبرى . . يا إلــهي هل أحقد على كل الكون .. هل أحقد على كل من يدب تحت أديم السماء .. كنت مظلوما من طرف واحد .. أصبحت الآن مظلوما من كل الأطراف .. كنت أحسب الشر ممثلا في شخص سلطان فقط وأن بإمكاني قهر شيطان شره وأخذ حقي منه بطرق قانونية .. فإذا بي في مجتمع متوحش تآمرت فيه علي كل الأطراف واجتمعت عليّ كل وحوش الأرض فنهشت ما تبقى من كرامتي ..

لم يجتمع في قلبي حقد كالذي اجتمع فيه ذلك اليوم حتى لو أنه قُسم على أهل الأرض لوسعهم في أن يصيروا أبالسة لا تدب الرحمة في قلوبهم ولا تعرف الرأفة طريقا إليها .

كنت سأتفهم موقف المجلس لو أن سلطان كان طبيبا حقا وذا شهادة لأني أعلم مسبقا أنهم ما أنشؤوا النقابات والمجالس إلا للدفاع عن بعضهم والتستر عن أخطاء بعضهم .. لكن أن يدافعوا عن شخص غير مؤهل

معدوم الشهادة .. دخيل على مهنتهم فهذا والله ما لا أفهمه ولا أستسيغه إذا ممن سأسترجع حقي الآن .. وكيف سأسترده .. إذا لا شيء سوى القصاص .. أصبحت الإدانة وحدها لا تكفي والتعويض وحده لا يكفي .. وحده القصاص من سيسترد حقي الذي ضاع وكرامتي التي اهريقت .. هم من أرادوا هذا .. فلألجأ إذا لشرائع الغاب .. وحقي سآخذه بيدي .. نعم سآخذه بيدي .

لم يكمل ماجد عبارته الأخيرة حتى انطلقت صفارات السجن منبهة السجناء إلى أنّ وقت التنفس والتشميس قد انتهى وعليهم العودة إلى زنزاناتهم .. انطلق السجناء يهرولون نحو البوابة كأنهم وحوش مستنفرة وقد حان وقت تقوقعها داخل كهوفها مدّ محسن كفّه لماجد ليستعين بها حال قيامه .. وقد طرف بعينيه بعد أن جف حلقه وامتلأ قلبه غصة بعد كل الذي سمعه ..

- غدا ستكمل لي بقية قصتك يا ماجد ..

- سأفعل ان شاء الله .. فقد ساعدني سرد قصتي في نسيان مكان تواجدي ولو نسبيا .. نسيت نفسي حقا ..

وضع كل منهما يده على كتف صاحبه .. ضحكا .. ومضيا نحو البوابة ليعودا لقدرهما المحتوم .

في بداية الهزيع الأول من الليل خيم الهدوء على المهجع .. قد أوى كل نزيل إلى فراشه .. كان ماجد مستلقيا في فراشه على ظهره مشبكا يديه خلف رأسه وهو يحملق في السقف .. بينما كان محسن يذرع الأمتار

القليلة المحدودة جيئة وذهابا وهو مطرق برأسه .. قبل أن يتقدم إلى فراش ماجد ويجلس على طرفه ويقول بصوت خفيض كأنها مناجاة :

- ماجد . . ماجد .. أرجوك أخبرني أنك لم تقتله ؟

قال ماجد وقد نظر إليه نظرة استغراب:

- من ؟

- ومن غير الطبيب المزيف الذي رويت لي قصته

ابتسم ماجد وقال:

- وهل أنت قلق عليه ؟

- لست قلقا عليه بل عليك أنت.. أريد أن يطمئن قلبي.. فلا أرى فيك الرجل المجرم بعد أن رأيت فيك الرجل الطيب ..

صمت ماجد برهة ثم قال وقد اختفت الابتسامة من على وجهه:

- أصدقني القول يا حسن: ألا يستحق القتل هو ومزيان وكل من حماه ؟

- لا أعرف .. الذي أعرفه أنك أنت لا تستحق أن تلطخ يديك بدمائه .. لذلك أرجوك أخبرني أنك لم تفعلها ..

تنهد ماجد في حسرة ثم قال:

- يا ليتني فعلتها

- الحمد لله .. إذا لم تفعلها ؟ صاح محسن

- اطمئن لم أفعلها .. لم أقتله ولا غيره .. ولا أظنني قادرا على فعلها وإن أتيحت لي الفرصة .. صحيح أنني وددت لو أني قطعت أوصاله بيدي لأشنق مزيان بأمعائه .. تمنيت أن أوغل في دمائه كسبع ظامئ أنهكه حر الهجير ..

لكن وازع الضمير فيّ جعلني لا ألتفت إلى خاطري ذاك .. تربيت على الرحمة .. ونشأت على الرفق والرأفة .. قد أبكي لمنظر قطة مقتولة صدمتها سيارة طائشة .. وقد لا يطرف لي جفن إن دعست على صرصور بباطن قدمي خطأ فقضيت عليه.. لم أؤذ في حياتي أحدا بقول أو فعل .. فما بالك أن أقتل انسانا حتى وإن كان هذا الإنسان هو الشيطان نفسه .

- الحمد لله .. طمأنتني .. لكن لم أنت هنا إذا ؟ أخبرني تتمة القصة أرجوك .. فأنا لا أستطيع أن أصبر للغد

قال ماجد بعد أن زفر زفرة كأنها خارجة من الجحيم:

- حسنا.. إليك تتمتها ...

لم أكد أفيق من صدمة الخيانة حتى سقطت طريح الفراش شعرت بتعب وإرهاق شديدين ولازمني اكتئاب حاد .. الخيانة من جهة وخسارة القضية من جهة ثانية كانا كفيلين بأن يسببا لي أزمة نفسية انعكست على صحتي الجسدية أو هكذا أوهمت نفسي حينها .. رفضت زيارة الطبيب أو المستشفى رغم إلحاح والدتي المتواصل ..

لازمت الفراش عدة أيام بدأت الآلام تزداد .. آلام في البطن وآلام في المفاصل والعضلات .. ازدادت حالتي سوء حين عزفت عن الطعام .. كنت قد فقدت شهيتي للطعام .. فقدت حتى القدرة على المضغ والبلع .. اصفر وجهي وذبلت عيناي .. حالتي تسوء شيئا فشيئا ..

كنت بحاجة لمن يسمعني .. لمن أبثه شكواي .. اتصلت بصديقي أمين .. ذاك السكير الطيّب الذي أخبرتك عنه .. أطلق منبّه سيارته حين وصل إلى البيت .. ركبت معه .. لم ألتقه منذ تلك الليلة التي أوصلني فيها إلى

الطبيب محمد .. تغير كثيرا .. يبدو أحسن حالا من قبل .. حتى سحنته تبدو منيرة وضّاحة .. لم يكن سكرانا تلك الليلة .. تحركت السيارة وبدأت تمخر الطرقات على غير هدى وتنتقل بنا من مكان إلى مكان على غير ميعاد.. كان يحاول أن يخفّف عني بعض التعب النفسي البادي على وجهي..

لم أسأله عن حاله .. فقد شغلتني قصتي عنه قصصت عليه قصتي من بدايتها إلى نهايتها .. أذّن المؤذن لصلاة العشاء . . فوجئت كثيرا حين ركن سيارته بقرب أحد المساجد .. لم يدم استغرابي طويلا حتى ابتسم في وجهي وقال:

- هيا إلى المسجد لنصلي ..

- أصبحت تصلي ؟ الحمد لله

- نعم الحمد لله .. فقد عُدت إلى الله أخيرا .. ندمت على ذنوبي الماضية . . ذرفت دموعا حارة كانت كالشموع التي أضاءت لي طريق الرجوع إليه .. سألت الله الذي فتح لنا باب الرجاء أن يغسل قلبي وأن يردني إليه .. وها أنا في طريقي إليه .. لم أجد لذة كلذة مناجاته ولا نشوة كنشوة السجود بين يديه .. التوبة منحتني طمأنينة وسلاما .. فسبحان من فتح لنا باب الأمل بعد أن كنا عن ذكره ساهين غافلين ..

قال كلماته الأخيرة وقد غرقت عيناه في دموعه ..

بعد الصلاة أمضينا الليل بطوله نمشي بالسيارة و نتسامر .. خرجنا من المدينة .. وانطلقنا في طريق ريفي .. في لحظة من اللحظات .. لا أدري كيف حدثت ولا جاءت .. انفجار في إطار السيارة الخلفي .. أمين يفقد السيطرة على المقود .. تنقلب السيارة .. لم أعد أذكر الموقف جيدا .. كل ما

أتذكره أضواء كثيرة منتشرة حوالينا .. وأناس كثر حول السيارة يحاولون إخراجنا منها .. وأصواتهم تملأ المكان ضجيجا وعجيجا ..

نُقلنا إلى المستشفى .. تأكدت من سلامتي بعد الفحص .. لم أُصب بأي أذى.. خرجت من الحادث سالما معافى .. حمدت الله على سلامتي .. رأيت الممرضين والطقم الطبي يهرولون في الرواق .. ما الذي يحدث؟ سألت عن صديقي ..

بعد أن كاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان وشعرت بانقباض مفاجئ في صدري.. أخبروني أنه في العناية المشدّدة .. تسارعت دقات قلبي أكثر شعرت ان الدم يتجمد في عروقي ..

- ما به ؟ هل حالته خطيرة ؟

- صديقك يحتاج إلى دم .. فقد نزف دما كثيرا .. لكن زمرته نادرة

- ما زمرته ؟ سألته بلهفة

- (٠) سلبي .. أجاب

- يا إلــهي إنها نفس زمرة دمي .. سأتبرع له أنا .. على الأقل حتى أكفّر له عن ذنبي فأولا وأخيرا .. أنا من اتصل به وبسببي كان الحادث .

جلست على سرير التبرّع .. تمّت عملية التبرع بالدم في فترة زمنية قصيرة لم تتجاوز الخمس دقائق . . حين امتلأ الكيس الطبي .. رجعت إلى سريري تحت الرعاية الطبية المباشرة .. لأن الطبيب أخبرني أنني لن أستطيع المغادرة إلا في الغد وسأظل تحت الملاحظة الطبية للتأكد من حالتي الطبية.

اتصلت بعائلته .. بعد لحظات كانوا مجتمعين في المستشفى .. لم أتصل بوالدتي لم أحكـ لها ما جرى حتى لا أخيفها عليّ فأنا أولا واخيرا سليم معافى والحمد لله

جلست وبعض أفراد عائلة أمين ننتظر أخبارا من قسم العمليات وقلوبنا تلهج بالدعاء له بالسلامة ..

خرج الطبيب .. اتجه نحونا .. أرخى الكمامة تحت ذقنه .. نظر إلى عيوننا برهة ثم أحنى رأسه وهو يقول بصوت خفيض :

- لم نستطع اسعافه .. فقدنا المريض .. عظم الله أجركم

دارت بي الأرض .. توقف كل شيء فيّ .. لم أعد أحسّ بشيء البتة .. هل خيّم الصمت على كل المشفى أم أن الكلمات الأخيرة التي سمعتها على لسان الطبيب سبّبت لي صمما فوريا ..

لم نستطع اسعافه .. فقدنا المريض .. ترددت العبارة في أذني أكثر من مرة .. يا الله رجعت بي الذاكرة إلى الوراء .. فقدته بعد أن وجدته .. لماذا أفقد كل من انا بحاجة إليه .. هل أنا السبب في وفاته .. ربما لو لم أتصل به لما تعرّض لما تعرض له قدّر الله وما شاء فعل .. تراجعت عن خاطري هذا بعد أن تعوذت بالله من الشيطان الرجيم .. أعرف أن كل ما يحدث لنا قضاء وقدر .. أنا أؤمن بذلك .. لكني بالمقابل لا أؤمن بالصدفة .. فهل أرسلني الله إليه لأعيش معه لحظات حياته الأخيرة وأشهد توبته .. غصّ في قلبي خاطر أمرّ .. كان امين صديقا لي منذ زمن ليس بالقليل ..

رغم ذلك لم أنصحه ولا مرة في أمر أخراه .. لم أجرب دعوته إلى المسجد ليشاركنا ركوعنا وسجودنا .. نعم لا أذكر أني فعلت ذلك يوما أكنت مقصرا في حقه إلى هذا الحدّ دون أن أشعر ؟

في لقاءنا الاخير هذا الذي لا لقاء بعده لم أتركه يتكلم لأني اخذت المبادرة.. كنت وحدي من تكلم .. وهو يستمع إليّ أحسست أنه كان يريد أن يقول شيئا .. لم يقل .. ليته قال .. ليتني سمعت منه ما أرادني ان أسمعه .. ليتني استمعت إلى حديثه وقصته .. لا بد أن له قصة ما..

- يا لخسارتي فيك يا أمين .. رحمك الله يا صديقي.. على كل سيدفن بشيء مني .. قلت للطبيب

- كيف؟

- الدم الذي نُقل مني إليه

- لكننا لم نعطه دمك

- كيف ؟ ودم من إذا ؟

- للأسف لم نلحقه لأننا لم نجد متبرعا

انتفضت من مكاني مغاضبا:

- لم تعطه ؟ لم ؟ ألم أتبرع له ؟ أنتم السبب في تقصيركم وإهمالكم ..

- اهدأ .. اهدأ ..قال الطبيب بوقار

- يأسفني أن أخبرك أنك ستمكث معنا عدة أيام هنا في المستشفى

- ماذا؟ أنا اتكلم عن صديقي الذي فقدته بسببكم وأنت تتكلم عن حالي.. ما الذي تقوله؟

- دمك أعطى نتيجة سلبية ونخشى أنك مصاب بفيروس ما .. سنكشف عنك أكثر بالأشعة ولننتظر التحاليل .. وأن شاء الله لن يكون إلا ما فيه خير..

دخل الطبيب في اليوم الخامس من مكوثي في المشفى .. كان هذه المرة يحمل ملفا بين يديه على عكس المرات الكثيرة الماضية التي زارني فيها ..

- خيرا ان شاء الله .. هل أثبتت التحاليل شيئا كنت أجهله؟.

أطرق الدكتور قليلا ثم قال:

- للأسف نعم

- ماذا ؟

- عندك التهاب الكبد الفيروسي

فتحت والدتي التي كانت تجلس إلى جانبي عينيها دهشة ووضعت يدها على فمها منعا لصرخة كانت على شفا شفاهها .. أما أنا فأحسست وقتها أن نصلا قد اخترق قلبي .. فعطل حركاتي .. أحسست بكبدي يتمزق أو يتفتت أو هكذا خيّل إلي .. حاولت أن أفهم عبارة الطبيب الأخيرة .. قلبتها في رأسي .. لم أستوعبها .. طلبت منه أن يعيد ما قاله كأني لم أسمعه.

أعاد هذه المرة باستطراد أكثر :

- الفحوصات التي أجريناها أثبتت أنك مصاب بفيروس الالتهاب الكبدي .. لكن لا تقلق المرض في بدايته كما أن نسبة الفيروس ضئيلة وبما أنه في أول مراحله فيمكن احتواء الفيروس ومن ثم القضاء عليه نهائيا .. لم نتأكد بعد من مصدر الفيروس وكيف انتقل إلى جسمك لكن كل ما أستطيع قوله لك الآن أن الفيروس من النوع الذي ينتقل بالعدوى ومن أهم مسبباته الإبر والحقن الملوثة ..

سكتّ .. ثقل علي لساني واستعصى عليه نطق الكلمات .. فلم أفُه بكلمة .. كأني للحظة فهمت كل شيء .. فهمت ما لم يفهمه الأطباء .. عرفت مصدر

الفيروس .. بل وكيف أجهله .. هي إبرة سلطان التي حقنتيها في مسلخه .. نظرت حولي .. كان وجهي خاليا من التعابير .. لم أندهش هذه المرّة .. لم اتأثر .. فقط أغمضت عينيّ ونمت .

خرجت من المستشفى بعد أيام من العلاج .. عمل الأطباء خلال ذلك من منع انتقال الفيروس إلى أشخاص آخرين والحدّ من تلف الكبد .. لم يستخدموا في هذه المدة غير المضادات الحيوية .. لكن رحلة الشفاء لم تنته بعد .. بل لمّا تبتدأ أصلا .. للقضاء على الفيروس بشكل نهائي لا بد من الخضوع للعلاج الكيمائي .. الأدوية والعملية العلاجية ككل مكلفة .. لم نملك ثمن العلاج ولا حتى عشره .. نُشرت قصتي على مواقع التواصل الاجتماعي .. تعاطف معي الكثيرون .. التف حولي المحسنون .. كل ساعد بقدر استطاعته .. أتممت علاجي حتى النهاية والذي استمر قرابة السنة .. سنة من الآلام والعذاب .. تألمت فيه والدتي أكثر من آلامي .. تألم فيه معي كل من عرفني .. الكل عرف قصتي .. أبدوا تضامنا ماديا ومعنويا ..

استجاب جسمي للعلاج .. تحسنت حالتي الصحية .. الفحوصات الأخيرة أثبتت أن الفيروس قد اختفى تماما من كبدي .. شفيت تماما .. أصبح مرض فيروس الالتهاب الكبدي من الماضي .. نسيته .. تركته ورائي ومضيت أكمل حياتي .. حمدت الله .. شكرت كل من وقف بجانبي أيام محنتي .. فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله ..

الآن مع كل هذا التعاطف من الناس .. قرّرت فتح القضية من جديد .. قرّرت معاقبة من كان السبب في كل ما حدث لي وكاد أن يحطم حياتي .. بل وهو سبب وفاة صديقي فلولا إبرته اللعينة كنت على الأقل استطعت التبرع له بدمي وانقاذه.. تبا

علمت أن الجماعة الذين كان يرسلهم سلطان للتوسط لديّ قد ذهبوا إليه أيام محنتي يطالبونه بدفع تكاليف علاجي أو بعضها بما أنه السبب الرئيس فيها .. فتجبّر وتكبّر وقال:

- وهل أنا والده حتى أتحمّل مسؤوليته .. فليشتكي إن أراد

ولما لاموه وألحّوا عليه رفض الخوض معهم وانصرف عنهم ..

أبدى أحد المحامين استعداده لحمل القضية على عاتقه .. والدفاع عني بلا مقابل .. أعطيته ملفي السابق وأضفت عليه كل التحاليل والكشوفات الأخيرة المثبتة إصابتي بفيروس الالتهاب الكبدي وكل أوراق علاجي .. من البداية كنت أؤمن أن قضيتي عادلة .. الآن لم أعد وحدي .. حولي الكثير من المتعاطفين الذين يرونها قضيتهم جميعا ويؤمنون بها .. خاصة أنها لم تتقادم .. وسلطان لم يغلق عيادته .. بل هو مستمر في غيّه وطغيانه وممارسة تشريح العباد في مسلخه .

لم يجد المحام صعوبة في تقديم عريضة الشكوى بين يدي العدالة .. خاصة أننا لا زلنا لا نملك دليلا كافيا لحد اللحظة لإدانته .. كانت هناك البطاقة وأضعتها حين وضعت ثقتي في مزيان وتركتها عنده .. لكني لا أزال أحتفظ بنسخ مصورة عنها .. قدمتها في الملف للمحامي ..

تكفّل المحامي بكل الإجراءات المتبقية .. صارت القضية مطروحة أمام القضاء .. لم يبقى لي إلا أن أكون حاضرا يوم الجلسة .

ما إن خرج القاضي وأعضاء المحكمة حتى هدأت قاعة المحكمة الفسيحة التي كانت تعج بالضجيج عجا .. جلس القاضي في منتصف المنصة المنتصبة في الأمام والتي تسد كل الواجهة الأمامية .. بينما جلس وكيل الجمهورية على يمين القاضي في الزاوية القصية في منصة صغيرة مخصصة له .. وجلس

كاتب الجلسة على يسار القاضي في الزاوية المقابلة لوكيل الجمهورية.. في باقي القاعة انتشرت الكراسي المرتبة والمصطفة بانتظام .. خصصت المقاعد الأمامية منها للمحامين جهة اليمين ولأصحاب القضايا من غير المحبوسين وعائلاتهم جهة اليسار .. في هذه المقاعد جلست .. وجلس سلطان وممثل مجلس أخلاقيات المهنة غير بعيد عني .. بينما تركت باقي المقاعد للجمهور المهتم بحضور القضايا المفتوحة .. في مقدمة القاعة خلف طاولة أعضاء المحكمة الطويلة وأمام كراسي الجمهور وقفت طاولة صغير كأنها منصّة كانت منتصبة في الوسط في مواجهة القاضي ..

نادى الكاتب بصوت جهوري على القضية التي كانت قبلي .. قام الطرفان وبدأ يتقارعان الحجة بالحجة .. كانا بدويان كما دلّت على ذلك هيئتهما ولهجتهما البدوية.. تنازعا حول قطعة أرض .. ومعروف عندنا أن الأرض بالنسبة للبدوي هي كل حياته .. ورغم أني كنت ساهيا مفكرا .. في انتظار دور قضيتي .. إلا أنني كنت أستيقظ بين الفينة والأخرى على وقع كلمات تعيدني إلى أجواء المحاكمة .. انتبهت هذه المرة بكل حواسي حين زلزلت ضحكات القاضي جنبات القاعة الفسيحة وكسرت سكونها .. ثارت حفيظتي .. ركزت أكثر عن السبب الذي يدعو القاضي للضحك في هذا الموقف .. حاولت أن أدخل معهم في الموضوع علني أضحك كما ضحكوا وأنفّس عن نفسي كما نفّسوا .. لكن خاب ظني ورجائي وانقلب إليّ البصير حسيرا .. فالقاضي ليس يضحك إلا سخرية واستهزاء وانتقاصا من أحد طرفي القضية الماثلة بين يديه .. القاضي عربيٌ كما يزعم وجد صعوبة في فهم لكنة ذلك الشاب البدوي الشاوي ... فلم يجد حرجا من الضحك عليه وعلى لهجته التي هي خليط بين الشاوية والعربية .. طأطأ الشاب رأسه واحمر وجهه

بعد أن أحس بالإهانة .. وأية إهانة بل وممن ؟ من الذي رفع إليه قضيته ولجأ إليه علّه ينصفه ويقضي له بالحق ..

حاول الشاب أن يواصل كلامه .. لم يستطع إخراج الكلمات بعد أن استعصت عليه.. زاد تلعثمه .. وزادت معه سخرية القاضي وضحكه حين التفت إلى وكيل الجمهورية وقال:

- لم استطع أن أفهم ما يقوله هذا البربري..

حاول الشاب الذي صنع منه القاضي مسخرة أمام الناس أن يداري إحراجه وخجله .. لم ينجح .. انفجر باكيا .. ربما لم يجد طريقة يعبر بها عن رفضه للإهانة إلا البكاء .. لم يستسغ أحد المحامين الموقف .. رفع يده طالبا الإذن بالكلمة .. قال بعد أن أذن له القاضي بالحديث بإشارة من يده :

- احترم نفسك سيدي القاضي ..

نزلت عليّ كلمة المحامي كصاعقة أصابت رأسي .. جمد الدم في عروقي .. ظننت أن لعنة وغضبا سيحلان على كل من في القاعة أضاف المحامي بكل ثقة..

- كلنا في هذه المنطقة بربر يا سيدي.. وفخر لنا أن نكون من البربر.. فنحن نعتز بذلك وليس العكس فلا تجعلها سُبة يرحمك الله

اعتذر القاضي بقوله:

- كنت أمزح يا رجل

أردف المحامي قبل أن يعود إلى مكانه ويجلس:

- الأولى أن نحارب هذه النعرات القبلية التي هي من مخلفات الاستدمار لا أن نحييها .. كما أنه من غير اللائق بك يا سيدي وأنت في هذا المقام السامق أن تهزأ بالمتحاكمين بين يديك ..

ابتسم القاضي وهو يقول محاولا الهروب من المواجهة:

- لقد قلت أني كنت أمزح معه فقط .. أظن أنكم لا تتقبلون المزاح

أعجبتي لحظتئذ شجاعة المحامي الذي واجه القاضي دون خوف .. ثم علمت بعد ذلك أنه ليس المحامي فقط من له الحق في أن يقف موقفا مماثلا أمام القاضي لأنه يملك حصانة قانونية .. بل يحق لأي مواطن أن يوقف القاضي عند حدّه إذا ما تجاوزه أو قلل من احترام المواطن أو حاول الانتقاص من كرامته .. فالقاضي مواطن كأي مواطن .. وهو لو فقهنا عامل لدى المتحاكمين .. وُضع في هذا المكان من أجل أن يخدم المواطن بأن يضمن له حقوقه فيرد الحق لصاحب الحق .. فالعلاقة بين القاضي والمواطن عليها أن تُنبنى على التقدير والاحترام المتبادل قبل العدل والمساواة .. لا ان تُنبنى على جبروت أعضاء المحكمة وخوف الجماهير حتى أصبحت كل مناقشة وكل كلمة حق في حضرتهم تُعتبر خروجا على كرامة القضاء وتقليلا من شأن المحكمة ..

لماذا بقيت مشدوها حين خاطب المحامي القاضي بتلك اللهجة الجادة والصارمة ؟ هل تُراها الهالة القدسية التي نشأنا عليها فوضعنا المسؤولين فوق ما يستحقون أم لأنهم علّمونا أن الخضوع حق خالص لهم ..

هل لأننا اعتدنا ألا نتحدث إلا بإذنهم وألا نسكت إلا بإذنهم .. أم لأنهم اعتادوا وقوف الحاضرين لهم إجلالا حال قدومهم وحال انصرافهم والانحناء بين أيديهم أوليس القانون وُضع أساسا لحماية حق المواطن

وحريته وكرامته فلماذا حولناه إلى العكس .. حولناه إلى أداة لقمع حق المواطن وحريته وانتهاك كرامته بإسم الجد والصرامة تارة وبإسم الهزل والمزاح تارة أخرى

في الغرب يتعلم المواطن منذ طفولته كيف يدافع عن حقه ولا يسكت عنه ويسترده ولو من والديه .. أما عندنا فيعلموننا وجوب طاعة الأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك .

صحيح أن للقضاء هيبة يجب ان تُحفظ وتُحترم لكن للمواطن أيضا كرامة وحقوق هي أولى بالإحترام والصون .

حين وصل دور قضيتي .. نادى كاتب الجلسة على إسمي واسم سلطان .. وقفنا .. تقدمنا إلى الامام .. طلب مني القاضي ان أتقدم أكثر إلى المنصة المنتصبة في الأمام سألني القاضي عن دعواي ..

أجبته وأفضت في الإجابة .. سردت القصة أولا بأول .. كان القاضي يقاطعني كل مرة .. ربما كان يحاول تفادي مالا يهمه من القصة .. أو ربما كان يتعمد فعل ذلك كي أضطرب في سردي لتفاصيل روايتي .. توجه بالأسئلة بعدها إلى سلطان ..

أنكر سلطان كل الوقائع .. نفى إمكانية توليه مهمة معالجتي أو معالجة أيا كان .. لم ينكر صلته تماما بطب الأسنان .. لأنه قال أنه مرمم أسنان ويشتغل في عيادة تعود لطبيبة وهي التي تولّت علاجه .. ابتسمتُ ابتسامة خفيفة عندما سأله القاضي عن عنوان العيادة فأعطاه نفس عنوان عيادته .. ابتسمت لأني أدركت أنه قد أخطأ في إجابته فجنى على نفسه ..

- أين الطبيبة ؟ سأل القاضي .. نعم تفضلي إلى المنصة

لم ألتفت بادئ الأمر.. سمعت طرطقة أقدام نسائية خلفي.. حين اقترب الصوت مني أو كاد تلفتّ برأسي ناحيتها .. تسمّرت في مكاني .. كانت مفاجأة لم أفهم كيف حصلت .. كانت هي نفس المرأة البدينة التي رأيتها آخر مرة في المجلس .. تلك المرأة البلهاء التي لم أدرِ يومها ما الذي تفعله معنا إذ لم تكن تفعل شيئا .. لم تكن يومها متهمة ولا ضحية .. اعتبرتها المحكمة شاهدة ..

تقدمت إلى المنصة وتنفيذا لطلب القاضي وضعت يدها على المصحف حسب بروتوكولات المحكمة .. أقسمت بالله جهد أيمانها ان تقول الحق ولا شيء غير الحق .. رجعت خطوة إلى الوراء ثم وقفت .. سألها القاضي بعض الأسئلة الخاطفة.. كانت تجيب بسرعة وبدقة إما نفيا وإما إيجابا كأنها حفظت درسها جيدا .. سألها القاضي:

- هل تعرفينه وأشار بيده ناحيتي..

هزت رأسها قبل أن تنطق ودون أن تلتفت إلي ثم قالت:

- نعم

- أنت عالجتيه ؟

- نعم

- هل يشتغل سلطان معك ؟

- نعم

- ما هو عمله بالضبط في عيادتك

- مرمم أسنان

- ألا يعمل عملك أحيانا فيخلع الأضراس ويحمل الثاقب ويعالج المرضى؟

- لا

- ولا مرة ؟

- لا .

مرافعة محامي المُدعّي

سيدي القاضي سادتي أعضاء المحكمة الموقرة .. أرجو أن يتسع صدركم لنا حتى نوضح ملابسات القضية الشائكة والمعقدة فموكلي قد لجأ إلى عدالتكم الموقرة وكله أمل في إنصافه وإعادة الحق له بعد أن ضاع أو كاد في غمرة العواقب التي لقيها .. سيدي القاضي إن موكلي كان قد تقدم إلى عيادة لطب الأسنان لمعالجة ضرسه المسوس ويا ليته ما فعل .. نعم فقد كاد أن يهلك بسبب رجل عديم الضمير انتحل صفة طبيب أسنان ونصب على الناس رغم أن مهنة الطب منه براء وفوق هذا وذاك حقن موكلي بإبرة متعفنة ألهبت لثته وشقّتها وشوهت فمه وأسقطت أضراسه ..

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أوصلته لسرير المستشفى بعد أن أصيب بفيروس الالتهاب الكبدي ..

وهنا علا صوت المحامي أكثر وبدا أكثر حماسة:

نعم أصيب بفيروس الالتهاب الكبدي ولولا سرعة اكتشافه لربما قضى نحبه بسبب رجل معدوم الضمير ارتدى يوما المأزر الأبيض ليخفي الشيطان الذي يسكنه .. وليس ماجد وحده من تداوى عنده بل عيادته مفتوحة في وجه العامة صباح مساء ولا حسيب ولا رقيب يردعه ..

سيدي القاضي إن موكلي لما لجأ إلى مجلس أخلاقيات المهنة الذي أحاله عليه وكيل الجمهورية قد أظهروا له التعاون جهرا و أضمروا له الشرّ سرا .. فخدعوه وغرّروا به وانتزعوا منه بطاقة المواعيد الأصلية التي كان يحتفظ بها كدليل على إدانة المجرم والتي قدمنا لكم منها نسخة مصورة هي كل ما بقي له منها .. بعد أن وثق بهم فاستغلوه واستغفلوه ..

سيدي القاضي إن مجلس أخلاقيات المهنة يعلم بأمر سلطان وهو متواطئ معه في جرمه متستر على فعلته لا يردعه وازع من ضمير ..

سيدي القاضي السادة أعضاء المحكمة الموقرة .. تأكدوا أن لو استمر المتهم في فعلته تلك فحتما ماجد لن يكون الأخير .. لذلك فهي قضية مجتمع بأسره فلا تخيبوا رجاء الرأي العام فيكم ..

سيدي القاضي إننا نطالب بإدانة المتهم بتهمة انتحال الوظيفة واللقب وإساءة استعمالهما وبتهمة التهديد وكذا إدانة أعضاء مجلس أخلاقيات المهنة الذين تآمروا عليه بتهمة إساءة استعمال السلطة وبتهمة الرشوة واستغلال النفوذ ..

ولذلك نطالب سيادتكم الموقرة بتسليط أقسى العقوبات على المتهمين حتى يُنقّى المجتمع من شرهم وحتى يكونوا عبرة لغيرهم ..

وشكرا .

مرافعة محامي المتهم

سيدي القاضي .. حضرات الأعضاء المحترمين ..

إن هذه القضية الماثلة بين أيدينا اليوم لا تمس موكلي الذي اتهم زورا فحسب .. بل تعدتها إلى أعضاء مجلس أخلاقيات المهنة الشرفاء .. وكذلك إلى الطبيبة صاحبة العيادة .. المُدّعي ولغاية في نفسه يحاول تشويه صورتها وتشويه سمعة عيادتها .. ولا ندري حقا من يقف وراءه ومن يدعمه في هذا الباطل الذي جاء به على رؤوس الأشهاد .. وليس له دليل ملموس تستند عليه دعواه إلا تلك النسخة المزورة التي يزعم أنها لموكلي .. وهذا تضارب في الأقوال إذ العيادة هي عيادة الدكتورة وها هي وثائقها بين أيديكم والتي تثبت ذلك والسنة التي افتتحت فيه عيادتها والتي تعود لأربع سنوات سبقت هذه الدعوى فكيف تصبح فجأة عيادة تابعة لموكلي ويصير موزّعا لبطاقات علاجية يمنة ويسرة ..

سيدي القاضي صحيح أن الطبيبة هي من عالجته وهي من سببت له بعض الالتهاب الخفيف وليس المبالغ فيه كما يصفون .. وهي قد اعترفت بذلك .. لكن قضيتهم حُلّت في مجلس أخلاقيات المهنة وسامحها يوم وقّع على التنازل في مقر المجلس وبحضور كل الأعضاء والذين وقّعوا بدورهم على الورقة كشهود على الصلح وها هي ورقة التنازل وقبل أن أسلمها لسيادتكم الموقرة فلتسمح لي بأن أقرأ ما جاء فيها حرفيا :

أنا الممضي أسفله المدعي ماجد ..

أشهد أني قد تنازلت عن شكواي على المدّعى عليها تنازلا تاما صحيحا لا رجعة فيه.. طوعا مني من غير جبر ولا إكراه .. وبكل ما تصح به الشهادة قولا وفعلا وشرعا وقانونا .. وعليه فإنني ألتمس الحفظ النهائي لملف الشكاية موضوع التنازل للصلح الذي وقع بيننا .

سيدي القاضي هذا ما جاء في وثيقة التنازل باللغة الفرنسية وقد ترجمته لكم حرفيا وهذا توقيعه وتوقيع كل أعضاء مجلس أخلاقيات المهنة وهم جمع غفير يستحيل تواطؤهم على الكذب واجتماعهم على الإضرار به .. وها هي الوثيقة فانظروها..

تقدم إلى المنصة أعطى القاضي الورقة ثم رجع خطوتين إلى الوراء وتابع بينما بقي القاضي يحملق في الورقة التي قُدمت له

سيدي القاضي أنا على يقين بأن المحكمة ستنصف المتهم البريء بعدما اطلعت عليه من أدلة تثبت براءته وبالمقابل بما عاينته من اضطراب في أقوال المدعي واستناده على أدلة وهمية مزورة في محاولة للتلبيس والتدليس على المحكمة الموقرة ..

وحتى ولو فرضنا أنه صادق وأدلته صحيحة فلمَ لم يستطع أن يُحضر ولو شاهدا واحدا .. أو ليس يدعي أن من تداووا عند سلطان بالمئات والآلاف .. فأين هم شهوده ..

سيدي القاضي إني أهيب بمحكمتكم العادلة ان تُعيدوا الحق لموكلي وأن تعيدوا له كرامته واسمه وذلك بإدانة المدّعي وتسليط أقصى العقوبات عليه وذلك بتهمة تزوير الوثائق وبتهمة الابتزاز وكذا الوشاية الكاذبة وإزعاج السلطات ومحاولة تمويه العدالة التي حتما لن تنطلي عليها تهمه الباطلة التي يرميها جزافا .. وشكرا

وجّه القاضي الحديث إليّ:

- هل أنت من وقّع هذا التنازل ؟

- نعم سيدي

- إذن تعترف أن الطبيبة هي من عالجتك وقد سوّيت القضية معها .. فلماذا اتهمت سلطان بذلك ؟ وما غرضك من وراء ذلك ؟

- لا سيدي

صرخ القاضي:

- كيف لا ؟ الآن قلت أنك وقعت .. فكيف تقول لا بعدها

- أقصد آه .. يعني آه . . نعم وقعت لكن أعضاء المجلس قالوا أنه مجرد تسجيل حضور ..

- يا ابني ستجنني .. كيف هو تسجيل حضور .. يا ابني هذا تنازل .. يعني أنت ما قرأت الورقة قبل الإمضاء ؟

- لا

- لماذا ؟ أرغموك مثلا

- لا

- لماذا إذا وقّعت وكيف توقّع على ورقة لا تدري ما مكتوب فيها

- لأني لا أفهم الفرنسية لكني وثقت بهم وبكلامهم .. فخانوني

- مازلت تتحدث عن الخيانة .. يا ابني كلامك غير مقنع وأنت لا تملك شهود وأدلة.. والقانون لا يحمي المغفلين... حسنا الكلمة لمحامي المدعي إن كانت له إضافة...

قام المحامي وقال:

- سيدي القاضي... إن هاته الورقة التي بين أيديكم هي بإعتبار القانون هي ورقة ملغاة .. فموكلي قد استُغفل من طرف أعضاء المجلس بهاته الورقة التي لم يدرِ ما جاء فيها .. ولأن موكلي مواطن عربي مقيم في دولة عربية فمن حقه أن يستلم ورقة مكتوبة باللغة العربية أو الأمازيغية لا بلغة أخرى .. وذلك بحسب القانون.. حيث أنه وبمقتضى المادة الثالثة والرابعة من الدستور وعملا بأحكام هذا الأخير وبأحكام موادها التي تنص على أن اللغتين الرسميتين للوطن هما اللغة العربية والأمازيغية فقط وبما أن الورقة التي قدمت له لم تكن بإحدى هاتين اللغتين بل بلغة أخرى دخيلة على الوطن .. ولأن الدستور فوق الجميع وهو القانون الأساسي الذي يضمن حقوق المواطن فإني أهيب بعدالتكم أن تعتبر الورقة ملغاة وغير قانونية .. ولذلك اعذرني سيدي القاضي فالسؤال الصحيح يوجه لممثل المجلس وليس لموكلي وهو :

لماذا حررتم هذه الوثيقة التي تسمونها تنازلا بلغة ليست لغتنا وما القصد من وراء ذلك إن لم يكن لإستغفال موكلي وإغلاق ملف شكواه والتستر على الفضيحة ..

وشكرا .

انتابتني فرحة داخلية رائعة لأني أعجبت ببداهة المحامي وقوة معرفته بالقانون .. لكن ما لبثت أن خمدت هذه السعادة حين رأيت محامي الخصم قد استعد للمرافعة من جديد وكله ثقة .. ثم حدثت نفسي إذا كان محاميّ يعرف القانون فمؤكد أن محامي الخصم يعرف جيدا كيف يتلاعب

بهذا القانون .. هذا ما أدركته مذ بدأت الجلسة رغم أني لا أفهم كثيرا كيف تجري الأمور هنا .

قام ممثل مجلس أخلاقيات مهنة طب الأسنان وقال:

- سيدي القاضي إن المدعي قد اعترف الآن بعظمة لسانه أنه وقع الورقة من غير أن يكرهه على ذلك أحد .. فكيف يمكن أن نقول عن الورقة أنها ملغاة قانونيا لأنها بلغة غير اللغة الأم للوطن .. كان يمكن أن يطلب المدعي في حينها ورقة باللغة العربية أو ترجمة لها .. أو أن يرفض التوقيع .. فقد كانت له كامل الحرية في ذلك .. أما أنه وقع يومها .. ثم الآن يقول أنه لا يعرف ما كان في الورقة فهذا يا سيدي المحترم بهتان كبير

سيدي القاضي إن المدّعي أراد ابتزاز الطبيبة إثر الخطأ الصغير الذي حدث له .. ولما رفضت الانصياع لطمعه وجشعه .. فعل ما فعل ظنا منه أن العدالة نائمة أو غافلة عما يفعل .

سيدي القاضي إن تسجيل محادثة الابتزاز والتي كان قد أجراها مع نائب رئيس المجلس هنا معي في هذا الملف فاسمعوه وانظروا .. ولكم واسع النظر .

شكرا ..

- رُفعت الجلسة للمداولة..

هكذا صاح القاضي بصوت قوي .. ثم غاب هو وأعضاؤه داخل قاعة خلفية.. بدأت الهمسات والهمهمات من طرف الحضور .. كنت مطرقا طوال مدة انتظار خروج القاضي لإستئناف ما كنا قد بدأناه .. هل يمكن حقا أن يضيع حقي ؟ هل يمكن أن يُنطق حكم البراءة في حق سلطان المجرم ؟ الكثير من الأسئلة دارت في رأسي .. طردتها بسرعة لا لا يمكن ..

فالعدالة ليست نائمة كما سمعت منذ قليل .. أكيد هم يعرفون أنني مظلوم.. وهل أبدو غير ذلك ؟

متأكد أن العدالة ستنصفني أو ليس منتصبا خلف القاضي ميزان متساوي الكفتين بحيث لا ترجح كفة على أختها .. إذن هنا الحق لا يميد ولا يحيد .. سننتظر ونرى

خرج القاضي من جديد .. صمتت القاعة لخروجه صمت القبور .. فرض حظر للكلام .. ضَرب بينهم وبين اللغو من جديد .. كل الآذان مصغية . كل الرقاب مشرئبة ترتقب صدور الحكم تنحنح القاضي وبدأ بسرد أحكام القضايا الماثلة بين يديه .. وقبله نادى على أسماءنا فوقفنا ..

حكمت المحكمة حضوريا على المتهم سلطان بالبراءة لعدم ثبوت أدلة إدانته .. مع الحكم بإيداع المدعي ماجد السجن احتياطا لحين النظر في حكمه وذلك لمحاولته تمويه العدالة وتضليلها والتلاعب بالأدلة واتهام المدعى عليه وأعضاء مجلس أخلاقيات المهنة زورا وبهتانا ..

رُفعت الجلسة ..

تعالت في المحكمة بعض الهمسات التي ما لبثت أن تطورت إلى صرخات من نوع ما .. الكل يحرك شفتيه .. الكل مستغرب .. الكل استنكر .. إلا أنا .. فلم أشعر بشيء البتة .. لأول مرة لا أستغرب .. لا أتعجب .. لا أصعق .. كان وجهي لا يحمل انفعالا من أي نوع .. هل كنت أعلم النتيجة مسبقا .. أم لأن قلبي تحجر فلم يعد يهمني شيء .. أأصبحت حريتي وسجني سواء .. هل تنازلت عن حقي وعن كرامتي بهذه السهولة .. لكن ما العمل .. ولمن تشتكي الخراف والقاضي ذئب ..

تقدم مني شرطيان وضعوا يدي خلف ظهري وفيهما وضعوا الكلبشات .. أداراني ليبدآ رحلة اقتيادي .. انسقت لهما .. وهل لي من الأمر ألا أفعل ؟ التفت إلى محاميّ رأيته يشير بكفيه وارتفع صوته حتى انتفخت أوداجه .. بدا لي كأنه يحتج على توقيفي .. لكني لم أكن أسمع شيئا مما يقول .. فصوتي الداخلي يستعر بضجيج أعلى كان يمنعني من سماع أي صوت خارجي .. في الطرف الآخر بدا لي سلطان ومحاميه يتعانقان وهما مبتهجان بالنصر الذي حققاه .. لم أهتم لأمره كما السابق..

خطوت أول خطوة .. كانت هي الخطوة الأولى نحو المُعتقل .. نحو المجهول.. ما فائدة عدّ الخطوات إذا كانت خطواتي القادمة كلها مُسيرة لا مخيرة .. أسرعت بعدها في المشي .. قبل خروجي النهائي من القاعة حانت مني التفاتة نحو مقاعد الحضور كأنني تذكرت شخصا ما .. أو كأنني أبحث عن شيء فقدته وأضعته .. ها هي تجلس هناك .. كانت والدتي .. التقت أعيننا لم نقل شيئا لكن أعيننا قالت كل شيء .. حين رأيت دمعا يسحّ على وجهها وهي تضع بقية خمارها المتدلي على فمها..

عادت بي الذاكرة سريعا للوراء .. تدفقت الصور على مخيلتي .. تذكرت خوفها عليّ .. تذكرت إصرارها على تنازلي عن القضية وتفويض أمري لله .. ليتني يا أمي متّ قبل أن أتسبب في نزول عبراتك يا أماه.. ليتني .. ليتني لم .. تقدمت أكثر .. غبت في البهو المظلم .. ربما لم يكن مظلما .. لكن هكذا بدا لي ... خرجت مع من خرجوا لنستقل حافلة نقل المساجين .. خرجنا إلى قدرنا الذي لا مفر منه .. ما إن خرجنا حتى وجدنا الدنيا بيضاء .. الثلوج تتساقط كما لم تتساقط من قبل .. هل يحاول الثلج تطهير آثامنا على هذه البسيطة .. ما أكثر آثامنا .

كانت هذه تفاصيل حكايتي من البداية حتى النهاية.. وها أنذا معك يا صديقي نتشارك الزنزانة نفسها .. وطننا الجديد.. لم أُستدع بعد إلى المحكمة رغم مرور ما يقرب من ثلاثة أشهر.. ورغم طعن محاميّ في الحكم .. مع ذلك فلست مطمئنا .. فوضعيتي تزداد تعقيدا خاصة أنني قد علمت أن سلطان قد رفع دعوى لإعادة الإعتبار..

يضحك ماجد بمرارة وهو ينطق الكلمة الأخيرة.. ثم يضيف بسخرية لاذعة:

- إعتبار وهل كان له اعتبار قبلا حتى يطالب بتحققه .. يا للسخرية .. كما أن مجلس أخلاقيات المهنة رفع دعوى هو الآخر بتهمة التشهير والقذف ..

ثم يزداد ضحكه كأنه يدخل في هيستيريا ضحك فجائية ..

- الطبيبة المجنونة أيضا رفعت دعوى تطالبني بتعويضها عما سببته لها ولعيادتها من خسائر مادية بعد تشهيري بها فتناقص زبائنها .. غريب أمر الدنيا.. كنت الضحية فأصبحت المجرم .. وكم هي كثيرة المضحكات المبكيات في وطني..

وهنا ترقرقت الدموع في عيني ماجد حتى أثقلت أجفانه فتساقطت سخّينة كأنما هي حمم براكين.. أي ألم كان يعتصره ؟ وأي مرارة كانت تسكن قلبه ؟

ربّت محسن على كتفه .. ثم حضنه وهو يهمس في أذنه:

- لا تقلق ستُفرج بإذن الله .. إن مع العسر يُسرا .. إن ضاع حقك في الدنيا فحقك محفوظ عند الله .. هذا ما علّمنا إياه الإسلام .. ثق بي . . ستُفرج .

نادى الحارس على اسمه:

- ماجد .. ماجد عندك زيارة.

قام من مكانه متأهبا مستعدا ثم انطلق مهرولا متحمسا ليرى الحبيبة الغائبة .. نعم لا بد أنها هي .. حدث نفسه.. أمي ومن غيرها يتفقدني .. عندما وصل اختفت ملامح الابتسامة من على وجهه وحل العبوس مكانها .. خابت ظنونه حين لم يرى أثرا لوالدته ولا حتى قبسا من خيالها .. وجد محاميه منتصبا أمامه وهو يبتسم ..

- أبشر يا ماجد

- خيرا إن شاء الله

- سيُفرج عنك وسيفتتح تحقيق من جديد

- أووف تحقيق تحقيق .. أية بشرى هاته .. تعلم أني لم أعد أثق في تحقيقاتهم وعدالتهم ..إن أُفرج عني اليوم وقد سُجنت ظلما فمالذي يمنعهم من إعادة سجني من جديد أوليست السلطة في يدهم

- لا الأمر مختلف .. أنت لا تعلم مالذي حدث ؟

- ما المختلف في الأمر .. مالذي حدث ؟

- لقد قبضوا على سلطان بالجرم المشهود ؟

- كيف ؟ .. لم أفهم ؟

- لقد ماتت على سريره الطبي امرأة حامل حين كان يتولى خلع ضرس لها .. المرأة المتوفاة هي زوجة وكيل الجمهورية .. ولذلك سرّعوا الإجراءات وتم القاء القبض عليه وعلى الطبيبة التي أجّرت له شهادتها ففتح العيادة بإسمها.. جهّز نفسك .. سأتم استنفاذ اجراءات خروجك من السجن .. ثم أعرج عليك لنعود إلى البيت معا .. فقد عزمت نفسي عندكم الليلة للعشاء..

ثم يضحك بينما أطرق ماجد دون أن ينبس ببنت شفة ..

حين عاد إلى زنزانته.. بادره حسن..

- خيرا إن شاء الله .. ما لي أراك مهموما .. من كان الزائر ؟

استمر ماجد في شروده هنيهة ثم قال وعيناه لا تزالان زائغتان ..

- اكتملت فصول المأساة وتجسدت الفضيحة بكامل أركانها ..

- ماذا ؟ كيف ؟

- سأخرج من هنا بعد لحظات ..

- الله أكبر .. جميل ألم أقل لك إن فرج الله قريب .. لكن هذا خبر مُفرح لا العكس .. فابتهج فإنك من السابقين وإني بك إن شاء الله من اللاحقين ..

- لكن لم أخرج من هنا إلا لمّا وقع ما كنا نخشاه ..حصلت جريمة راح ضحيتها بريئان ..

- جريمة ؟ ماذا تقصد ؟

- سلطان قتل امرأة كانت حاملا.. لقد قتل نفسين وروحين من أجل إرضاء ساديته وغروره.. لكن من ترُى القاتل الحقيقي.. هو.. أم الطبيبة المجنونة التي أعطت له ترخيصها ليستغلها.. أم مجلس أخلاقيات المهنة الذين تستروا على جرمه .. أم العدالة أم غياب الرقابة .. أم أنا بطمعي وتنازلي عن مبادئي .. أتدري يا حسن من المرأة التي قُتلت من غير ذنب ؟ هي زوجة وكيل الجمهورية الذي قال لي يوما : لن أستطيع أن أفعل لك شيئا .. حينما أبلغت عن هذا المجرم وأنه لا يزال فاتحا باب مسلخه .. ذكّرته أنني إن نجوت أنا فحتما سيأتي اليوم الذي لن ينجو أحد المرضى من قبضة يده الملطخة بالقذارة .. لكنه ما تذّكر ولا أعار كلامي اهتماما حتى ذاق مرارة

الظلم الذي سكت عنه يوما .. عجّلوا في اعتقاله وفُتح تحقيق في القضية .. لأن الجريمة اليوم مسّت المسؤولين أما لو أنها مسّت أحد البسطاء .. لكانت كقضيتي .. مجرد شكاية كاذبة وملف ابتزاز .. فالألم الإنساني سيبقى موجودا ما دامت الضمائر ميتة وما دام كل واحد منّا لم يعرف دوره الحقيقي في لعبة الحياة .. فالفاسد منّا كالضرس الفاسد إما أن يُجتث من جذوره فيزول الفساد بزواله وإما أن لا يُلتفت إليه فيُفسد وينخر ما حوله.

انتهت ...

٢٠١٧/٠١/٢٣

إلى بابا نويل

رغم أن الآلام لا تُهدى إلا أنّي لم أجد شخصا
آخر يستحقها أكثر منك
ورغم أنهم زعموا أنك تُهدِي ولا تُهدَى إلا أنّي
قرّرت أن أهديكها
نعم .. رغم هذا وذاك قررت اليوم أن أكون أول
من يهديك شيئا
عساك تفهم أننا بحاجة إلى العدل أكثر من
حاجتنا إلى الألعاب..
فخذ هديتي هذه واجمع ألعابك وأيائلك كلها..
وانصرف
فقد مات عمر